



كانت كاسمها .. فكرة .
وكانت هازئة بقواعد الحياة .
وكان لا يغريها من جمالها وفتنتها ما يغريها
فى الرأى مصدره المنطق الصحيح .

تأليف

أحمد سباعى

طبع بدار الكتاب العربى بمصر
شارع فاروق — تليفون : ٥٠٩٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم على ما أوليت . . .

وأستغفرك فيما لويت . . . . . .

وأصلي وأسلم على خير من اصطفيت

الإهداء

ولديّ . . أسامة وزهير :

لا يتجه فكرى قط أن أعنى بإهداء قصتى لغيركما لأنى لا أستطيع أن أخادع فأدعي أنى أوثر أحداً عليكما ، أو أوليه ما أوليكما من وفاء وإخلاص .

ستقرآن فى قصتى نوعا من الأفكار التى تساورنى فى حياتى ، وتجدان فيها مثلا من المثل التى عشت أحلم بها ، ولم أحقق بالنسبة لنفسى شيئاً منها . . ذلك لأن فى ملابسات تكوينى وتربيتى مالم يهيئنى لها .

فشاركانى الأسف على ما فرط ، وساعدانى ما استطعتما على تحقيق أحلامى فيكما ، حاولا جهدكما أن تكونا سادة فيما ترثيان ، وأن تتكبرا على كل تقليد لا يصدره علم صحيح أو منطق سليم

توطئة

لا أعرف بالضبط أول مؤلف فكر في أن يلتمس لإنتاجه «كبيراً» من أدباء الجيل، يقدمه بفذلكة قصيرة، أو فصل مطول ... ولكنني أعرف أنه كان مهرجاً إلى حد، وأن فيما ابتدعه شيئاً من الشعوذة والحيلة، وشيئاً آخر من الاستجداء.

وأكبر ظني أنه في اليوم الذي دالت فيه دولة التقاريظ، واستفتاح المؤلفات بالسجع المقفى، الذي يطري المؤلفين ويرتفع بهم إلى مقام وحيد العصر، وفريد الدهر ... حل التقديم المفوف، والثناء المبطن، محل ذلك البهرج المكشوف.

لنترك هذا إلى الطريق المطمئن، ولنبدأ فيما ننتج مجردين من الصنعة.

* * *

بين يدي القارئ اليوم قصة فتاة عاشت لأفكارها،

ودانت لما تعتقد ، ولم تخضع قط لتقليد لا يؤيده منطق ، أو تدعمه بينة واضحة .

وهى على ما يتألق فى أهدابها الوطف ، وأجفانها الدعج ، ومحياها المشرق ، تأبى إلا أن تعيش العيش الخشن ، وتجالد مجالدة الأقوياء ، ضد أوضاع الحياة ، وتسخر سخر الفلاسفة بأوضاع المجتمع .

ويصادفها شاب عاش لرجولته وأخلاقه السامية ، بقدر ما ترفع عن تهافت الشباب الرقيع ، فيأبى عليه سوء طالعه ، أو حسنه إن شئت ؛ أن تنفتح نفسه لما تألق فى أَهدابها وأجفانها ويسحره ما أشرق فى محياها من الفتنة فيغدو صريع هواها ، وتغدو ساخرة بأفكاره التقليدية فى الحب والحياة إلى أن تقول :

« الحب فى شكله الأخير غلطة الأجيال والحقوب ، تحدرت إلينا فى أسلوب كانت القصة والوضع أهم عناصره ... » ثم تقول : « إننا نتشبث بالعرف تشبثنا بشىء مقدَّس ، وإن كان بعيداً عن المنطق والعقل ، بعيداً عن الدين » .

ثم يمضيان معاً فى مذاهب كثيرة فى ضواحى الطائف ، ويتمتعان بينها بمشاهد جميلة أخاذة ، ومناظر طبيعية فاتنة ، ويتناول حديثهما صنوفاً شتى من ألوان الحياة ومناحيها بالتفنيد والتعقيب ، فى روح الساخر بأوضاعها ، الهازئ بتقاليدها .

وتمضى بهم القصة ، أو يمضيان فيها إلى نهاية لا أستبق القارئ بها ، ولا أوشّى بين يديها بكلمة ... وحسب القارئ أن يمضى فى لِيَّته — إذا شاء — مجرداً من التهيئة والإعداد ! .

المؤلف

١

صادفها تدلج فى هدأة الليل الأخيرة ملتمسة طريقها بين منعرجات واد من الوديان الكثيرة الملتوية فى ضواحى الطائف وصافحت عينه فى ومضة البرق وجهاً كامل الاستدارة ، وعينين تأتلقان فى محيا ذابل ، وقسمات تنطق بالصبا على جسم ملفوف فى ثوب طويل فضفاض .

كانت خطواتها متزنة رشيقة تدل فى ثباتها على القوة وفى نشاطها على الصبا ، وأرخت عن رأسها صرة فيها شىء من العيش وبعض من اللحم المقدد ، وجلست بجانبها على شرف فى مسيل الوادى . . تقضم محتوياتها فى سرور وغبطة ظاهرين .

وأحست به يسرق خطواته فى هون ورفق إليها فاستشعرت الريبة ، وصاحت به فى لهجة الغاضب : رح فى طريقك يا هذا ! !

ولم يكن شابا من الطراز الرقيع المتهافت على الخطيئة

والإثم . . بل كان مثالياً يسمو برجولته، وسمو أخلاقه على الريبة والظن ، وتنطوى نفسه على إنسانية عالية قليلة المثال .

كبر عليه أن يمضى فى طريقه دون إنسانة تنطوى على نفسها فى هذا الطريق القفر ، وراق له أن تغضب لريبتها فيه ، وأن تستأسد أمامه فى وديان ضالة ، فحث خطاه نحوها وهو يقول :

— سأمضى فى طريقى ولكنى جائع ! !

— لا يجوع مثلك وأنت فيما تبدو مترفا ، وليس فى صُرَّتِى ما يتبلغ به مترف ، فخذ طريقك !

— أما أن صرتك ليس فيها طعام مترف فصحيح . . ولكنى جائع . . . والجوع لا يعرف الترف ، ثم إنى ضال وفى حكم أبناء السبيل . . وأبناء السبيل إخوان .

وشزرت بعينها ، ولوحت برأسها ، كمن يريد أن يقول شيئاً ، ثم أشارت إلى ناحية صرتها وقالت :

— إذا وجدت بها ما تستسيغ فدونك ! ! !

كانت إجابة أبرز ما فيها الاقتضاب فى نبرة منطلقة . . اعتبرها صاحبنا إذنا بالدنو ، وجوازاً بالتغلغل والتعمق .

كلاهما ابن سبيل . . . هى فى انقطاعها فى هذه الوديان المقفرة ، وفقرها إلى جحر يؤويها كما ظن . . . وهو فيما اختاره لنفسه من التجول ، والضرب فى آفاق الأرض النائية .

وتألق الجو بومضات من البرق خاطفة، فعكست أضواءها على جبين ناصع غض الشباب ، وأنف أقنى وسيم ، وولولت الريح آتية من الشمال ، فعصفت بخمارها فنضا عن شعر مغدودن مرسل .

واشتد هزيم العاصفة ، فاقتلعت شجرة قوية فى منحدر التل ، وألقتها على أحجار كبيرة ، فارتطمت بالصخور وأزاحتها ، فكنت تسمع لقعقعتها وهى تنحدر فى مسيل الوادى ، دوياً يثير الرعب ويشيع الفزع .

واربدّ الجو ، ودمدم الرعد ، وانجابت الغيوم عن هطيل مدرار سالت به الهضاب والروابى ، وانحدر فى رعونة وجنون فى منعرجات الطريق إلى بطن الوادى .

انطوت الفتاة على نفسها ، وجمعت أطراف ثوبها إليها تحتمى به من المطر الوابل ، وتقدم صاحبنا منها فى دعة وتلطف

يسألها أن تثق بمروءته ، وتعتمد ذراعه ليبلغ بها مأمناً يقيها العواصف والمطر .

ولم يمض بها إلا قليلا على حوافى الوادى حتى وجد مأمنها فى كهف صغير مرتفع عن الطريق ، انتهى بها إليه ، وهيأ مكاناً لراحتها ، وقال وهو يوليها ظهره : ما عليك إلا أن تنزعى ثوبك الخارجى ، وتنشريه على باب الكوخ ، ثم تأخذى قسطك من الراحة ، وسأتولى حراستك على كثب من الكهف .

٢

أدهشتها تصرفات الرجل ، وأكبرت فيه مروءته ورجولته ، وهالتها رخاوتها واستسلامها إلى غريزة الأنوثة ، وهى ربيبة الوعور والجبال . فاستشعرت الجد والشجاعة ، وبرزت لمواجهته كما يبرز الفارس الواثق من كفاءته أمام الند :

— خل عنك يا هذا . . فلست من مخدرات البيوت ، ولا عانسات القصور ... إنى بنت هذه الجبال العاتية ؛ درجت فى وعورها ، واكتسبت من صلابتها ، ومرنت على قساوتها ،

ولقيت بين يبابها ما هو أشد هولاً من لقياك . ستجد فى هذه الشاخصة أمامك امرأة غريبة تبرز للند ، وتقابل الكفء تجزيه عن مروءته فضلا ، وعن خسته شر ما يجزى به أثيم . ولست بالمرتابة فيك ، وقد شهدت نبلك ، أو الخائفة من استدراجك ولو كنت الشيطان ! !

كان يستمع إليها وفى صوتها هزيم الرعد ، وعلى ملامحها سيما الصرامة والجد ، وفى حركتها حركات المعتد بنفسه ، الواثق من حقيقتها . فما ملك أن أطرق خاشعاً لقوة روحها ، وشدة شكيمتها .

وخفت إليه ، وشدت ذراعه واجتذبته فى قوة إلى ما هيأ فى الكهف لاستراحتها وقالت :

— لست أنا التى يوطأ الوعر لراحتى ، إنما لأمثالك المترفين يمهد الفرش الوثير اللين ، وتكفينى حصاة من هذا أنطوى عليها ، كما تنطوى العنزة على نفسها بين الصخور . . . وعمدت إلى كمها فشمرته عن زند ؛ صب فى قالب مصقول كأنه مرآة جليت من ليلتها ، ثم ضربت بكفيها وانطلقت من الكهف

تغدو منحدرة إلى السهل فى خفة القطا ! ! !

ولم تغب إلا قليلا ، ثم عادت وعلى رأسها حزمة من الحشيش الجاف والحطب ، وفى يدها وعاء طافح بالماء وقالت :

— إننى حاولت جمعها من بين زوايا الجبل جافة لم تمسسها الماء بوابلها ... جمعت الحشيش فى الجزء الممهد ثم سوّته بيدها حتى استوى فرشاً وثيراً ، ثم أشارت إليه بالجلوس وفى عينيها المتألقتين صرامة الحاكم ، وعطفت إلى الأعواد اليابسة تجمعها وتضرم النار فيها ، ثم تدنيها بكفها إلى ناحيته ، وتأخذ بكفه إليها قائلة :

— تذوق لذة الاصطلاء على لهب مستعر فى كهف خشن .

ودارت على عقبها فتناولت صرتها ، وبدأت تأخذ القطعة من الخبز فتغمرها فى وعاء الماء ، ثم تدنيها من النار وتعمد إلى الواحدة من شرائح اللحم المقدد فتعيد شواءها وتقدم له لقمة طازجة لذيذة ، ومدّت يدها إلى آنية للقهوة تحتفظ بها فى صرتها مع شىء من البن المطحون ، فهيأت له قهوة يطفو عليها الحباب كانت نكهتها وهو يدنيها من فمه شيئاً جديداً ، ماتذوّقه قبل اليوم فى كل ما شرب من القهوة .

كان كل ما أحاط به غريباً عليه ... تكأة على وثيرة من الحشيش الجاف أمام شواء مرتجل، وقهوة طازجة ، فى جوف مغارة ، بين يدى فتاة جميلة فى ريعان ، الصبا توليه من عنايتها مايدلله ، ومن نضوجها مايبخر أحلامه فى الجمال ويبددها .

كان الليل قد أوفى على نهايته . وبدأت خيوط الفجر تلمع فى برك الماء الصغيرة المتجمعة حول الكهف من ماء المطر ، وكان الجو خارج الكهف مقروراً ، والسماء لا تكف تدرّ فى غزارة ، فتجتمع المياه بين فجوات الصخور وتجرى فى جداول منحدرة إلى الوادى فى انسياب وصفاء ، وفقاقيع الماء ترقص فى الحفر المنتشرة على طول انحدار الجبل ، فى شكل جذاب جميل .

وخفّ صاحبنا إلى باب الكهف يستنبئ حالة الجو ، فأخذه منظر الطبيعة تلمع فى أفقه خيوط الفجر ، فأهاب بفتاته أن تشاركه متعة هذا الجمال ، فلبت سريعة ووقفت إلى جانبه معتمدة على حجر ناتئ يفصلها عنه ، فبدت بقامتها المعتدلة تمثالاً حياً ينطق بالجاذبية والجمال .

قال وهو يشير إلى سحابة داكنة على الحافة القصوى من الوادى :

— أظننا فى يوم ماطر عتيد ؟.

فأجابت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة رضية .

— والمترفون يخافون المطر ! !.

قال :

— وجمل الصحراء ، وعنزة البادية ، وغزال الجبل يتقين المطر ما أمكنهن ذلك .

— فما ملكت أن انفرجت شفتاها عن ضحكة عالية ، ثم تكلفت الجد أكثر من ذى قبل وقالت :

— وما تعنى ؟ . أترى هذه البادية ، وكم فيها من وضوح وبساطة ؟ . . إننى ابنتها يا صاحبى ، واضحة كهذه الشمس المشرقة ، رغم السحاب المتراكم ، بسيطة بساطة هذه السهول المترامية ، فلا تحاول أن تلوى أو تحاجى .

— لست ألوى . . . ولكنك ترتابين ... ولا أحاجى ،

ولكنك تحاولين أن تأخذى فكرة عنى هى أقرب إلى ريبتك منها إلى حقيقتى .

— إنك عميق شأن الحضر ! . . . وإذا شئت فهنا مقيلنا اليوم بين القديد والقهوة ... فكن فصيحاً لأعرف موضع ريبتى ، وسأكون واضحة لتتعرف مدى عمقك .

٣

وعادا إلى مجلسهما من الكوخ ، وهى تقدم إليه فنجان القهوة :

— ليتنى أعرف من تكون ، ومن أى الحضر أنت ؟ . وفيم هذا الإمعان الضال فى الليل البهيم وبين مسالك وعرة غير مطروقة ؟ .

— أما أنا فمكىّ من بنى هاشم ، ثم من بنى عبد مناف ، عاش أجدادى عيشك هذا فى ظلال مثل هذه السفوح ، وتمتعوا بفطرتهم السليمة ، بين مناظر الطبيعة البريئة ، ثم تحضَّروا على مر الحقوب ، فنشأت أنا بين خمائل القصور ، وهين العيش ، ففقدت صرامة بنى هاشم ، وبساطة عبد مناف ، ولكن لم

أفقد شيمتهم وإباءهم ... وينزع بى عرق دساس إلى هذه الطبيعة العارية ؛ فيسلس لها قيادى ، وأمضى الفينة بعد الأخرى أرود جبالها الشم ، وفيافيها الوعرة ، إلى غير طوية ، إلا أنى أستجيب إلى ما تنزع إليه نفسى ، ويدفعنى إليه هوى طاغ .

قالت وهى تتحسس موضع كمها من زندها وتعيده مطوياً إلى مرفقها :

— وقد عثرت من ليلتك على عنزة الجبل ضالة منفردة ، فاستأسدت ، ودعاك حنين الأجداد الصيد إلى صيد البيد !

— هى ذى ريبتك المستغلقة .

— أبداً ، ولكننى أمزح ... ولست فى نظر نفسى عنزة ضالة ، ولكنى ذئبة رئبال أرود الفيافى وأنا واثقة مما أرود ، وأتعرض للأهوال وأنا موقنة بنفسى عارفة لما أتعرض .

قالت هذا وكشفت فى فتق من جيبها عن مسدس أمريكى فى حجم الكف يمنطق خصرها الرقيق .

قال وقد أخذه الدهش ، وملكته الروعة :

— لست آمن أن تكونى من غير بنات الإنس ،

تتنكرين فى مثل هذه الثياب عبثاً بالمارة ، وإلا فما معنى أن تحرز مثل هذه الآلة بدوية نائية فى هذا القفر ؟.

— هذه نقطة السر فى حياتى التى ستسمع فيها قصة من أروع ما قرأت من قصص .

ستدعى بعد اليوم — وأنت صادق — أنك بتأثير قوى لا أفهم كنهه ، استطعت أن تفتح مغلقاً فى نفسى ما فتحه غيرك ، وتعرف من أمرى ما ظل إلى اليوم سراً مطوياً .

إننى يا هذا من بنات قرية (. . .) فى شمالى الطائف . كان أبى ؛ ولعل فى إطلاق كلمة أبى على ذلك العجوز الطيب ، تجاوزاً كما كنت أسمع من بعض المتشككين ، لأنى ربيت فى حجره ، دون أن أعرف لى أباً ، ونشأت على اعتباره أباً كما كان يسمى نفسه ، وكما كنت أفهم قبل أن يخالجنى الشك .

كان أبى هذا معلم القرية وفقيهها ، وإمام السقيفة الصغيرة التى يطلق عليها مسجداً يصلى فيها ، ويعلم بعض الصبيان . وقد نشأت كخادم لهذه السقيفة ، أعنى بتنظيفها وإضاءتها ، وترتيب ألواح الصبيان فيها ، وكنت إذا فرغت من عملى عند

مجيء الصبيان . شاركتهم القراءة والتهجي، حتى تفتحت عيني على ذلك ، ولاحظ أبي أن في استطاعتي مساعدته في تحفيظ المبتدئين ، فوكل ذلك إليّ ، ومن ثم ظل يعني بي عناية خاصة بعد خروج الصبيان ، إلى أن هيأني لكتابة ألواح المبتدئين ، وتفتحت عيني بالتدريج على القراءة والخط ، ولاحظ استعدادي لمعونته ، فكان يشركني في تعليم الأطفال حتى فوق المبتدئين . وفي المرات التي كان يتغيب فيها عن الكتاب لشأن من شئونهما الكثيرة في القبائل المجاورة ، كنت أتولى عمله . . . وكان الأطفال ينادونني بالفقيهة ، وكذلك فعل نساء القرية ورجالها .

وشعر أبي أنني في حاجة إلى أن يزودني بأكثر مما يقتضيه محيط الكتاب ، فترك بين يديّ كتاباً في القصص ؛ فالتهمته بروح الجائع . ورأى من قراءتي ما سره ، فمنحني كتاباً في الحديث ، وطلب إليّ أن أقرأ عليه في كل يوم جزءاً منه ، ثم يعقب بمناقشتي ، فشعرت بالميل الشديد إلى إتمامه في بضعة أيام ، وقد كان . . . وتفتحت روحي لمعانيه ، فكنت أسابق

أبى إلى حلها ، فيسره ذلك منى ، ويربت على كتفى فى حبور وبهجة .

وانقضت سنة وأخرى ، كنت فى نهايتها قد أوفيت على قراءة المصحف بكامله ، وكتاب الحديث الذى ذكرت ، وشرعت فى مطالعة كتاب من كتب التفسير ، فتوسعتْ آفاقى ، وشعرتُ بميل شديد إلى قراءة كل ما يقع تحت بصرى.

وزار قريتنا فى إحدى المرات موظف عجوز فى طريقه إلى مهمة رسمية ، فلفت نظره مرأى فتاة صغيرة ، تتفيأ خميلة وارفة على ضفة جدول ، فى يدها كتاب تتصفحه . فترجل عن دابته ، وخطا إلى ناحيتى ، وابتسامة شائعة فى محياه ، ثم تناول الكتاب ، فإذا هو للعلامة (ابن حزم) ، فوضع يده على صفحة منه ، وطلب إلىّ أن أقرأ ، فاندفعت فى قراءة الصفحة بكاملها ، وبدأت الثانية ، فاستوقفنى ، وشرع يناقشنى فى معانيها فكنت أتعثر فى أكثرها ، ولكنى أجيب إجابة صحيحة فى أقلها . فأخذه العجب ، وسألنى عن أبى ، فما أن عرف أنه معلم القرية حتى قال لى :

— سأبعث إليك باسمه بعضاً من كتب الأدب والشعر ، فاحرصى على قراءتها .

فأطرقت برأسى ،وشكرت له عنايته فى كلمات قصيرة .

وكان العجوز يهبط قريتنا كثيراً فى ذهابه وإيابه ، وكان فى كل مرة يبعث إلى أبى باحثاً عنى ، فيأمرنى أبى بمقابلته ، فأقابله ، وأقرأ بين يديه . . . وكان لا يقبل منى قراءة ما ، حتى يستوضحنى معناها ، فكنت أصيب تدريجياً فى الكثير ، وأخطىء فى النادر القليل .

وفى إحدى المرات ناولنى مجموعة كاملة لمجلة بيروتية ، تعنى بالدين والأدب والاجتماع ، فجعلتها سلوتى فى الليالى المقمرة ؛ فكنت أقرأ حتى إعلاناتها القضائية والتجارية .

وشعرت بعدها أنى فى حاجة إلى تنظيم قراءتى ، فابتدأت بالتاريخ . . . درست أيام العرب وحروبها ، وعهد النبى صلى الله عليه وسلم وغزواته ، وسيرته الخاصة ، ومضيت فيما بعد ذلك من أحوال الخلفاء ، فقرأت أكثر ما كتب عنهم ، وكونت لنفسى رأياً خاصاً فى ذلك ، ودرست العهود الثلاثة :

الأموى ، والعباسى ، والأندلسى ؛ كما درست دويلات الإسلام ، وقرأت نحلهم وأكثر مذاهبهم ، وقرأت العهود الثلاثة : العثمانى ، والهاشمى ، والسعودى . وأمعنت فى دراسة النقط الفارقة لكل عهد على حدته .

وزادت صلة أبى بالموظف العجوز ، إلى أن أمحلت ديارنا ، وجفت آبارنا فى بعض السنين ، فهبط بى أبى إلى مكة ، فكنا ضيوفاً بدار الموظف الذى حبانى بالكثير من حنانه ، وساعد على تنظيم قراءتى ، وكانت له مكتبة عامرة ؛ وجدت فيها ما أنشد ، وتركنى والدى أتفرغ لقراءة ما أريد ، ولم يمنع العجوز عنى شيئاً تناولته بيدى ، حتى إن ما يحظر على الفتاة قراءته فى العادة ، كان لا يحظره علىّ . وقد سمعته مرة يقول :
(إنى لا أخاف على المتدين من ألف كتاب مستهتر !!)

واعتزم السفر إلى الآستانة ، وكنا نزلاء عنده ، فتمنى على أبى أن يتركنى فى خدمته ، فتمانع قليلا ، ثم نزل على إرادته وأصبحت يوماً ، فإذا السفينة تقلع بنا ، تمخر العباب فى طريقها إلى السويس ، وأقمنا يوماً بالسويس ، وعشرين يوماً بين

الاسكندرية والقاهرة : نزلت فيها عن كثير من ملابسى ، وأكثر من الكثير من عاداتى ، وانغمرت فى لجة الحضر ، وتعرفت إلى الكثير من أخلاق المدنية وعاداتها ، وشهدت مدارس البنات فى الاسكندرية ، والقاهرة ، والآستانة فيما بعد ، وناقشت المتعلمات ، وحضرت مجالس العلماء من أجلة الأزهريين ، وكبار السلفيين ، وفلاسفة المتصوفين . ثم انتقلنا إلى الآستانة ، وعرجت فى طريقى إلى إيطاليا ، فشهدت عظمة نابولى ، ومدنيّة روما ، ووضعت أنفى فى الجوامع ، والمعاهد ، والأكاديميات ، وحفلات الرقص والموسيقى ، واختلطت بالعلماء فى غرف تجاربهم ، والخليعين فى نواديهم العامة .
وانتهيت بعدها إلى الآستانة ، فاختلطت بالطبقات المستنيرة ، والجاهلة ، وتعرفت إلى الأورستوقراطيين والعمال ، وقادنى حنينى إلى المزارع والجبال ، فسامرت البدويات فى مرتفعات الأناضول ، والفلاحات فى سهول أزمير . . وكنت موضع عناية سيدى طول خمس سنوات ، أقمتها فى الآستانة : كما كنت محـــــل رعاية ابنه البكر ، الذى كانت

تجمعنى به حياة متجانسة ؛ متفقة العناصر .

ونعى إلىّ خبر وفاة سيدى ؛ وأنا فى قرية نائية ، فكانت مأساة ما نسيت ولن أنسى هولها ما حييت . وقفلت عائدة إلى الآستانة ، حيث تقدمت بعزائى إلى الأسرة الكريمة وعاهلها الشاب .

وحاولنى على أن أقبل يده كزوجة ، لكنى كنت قد سئمت الحياة المدنية ، وتاقت نفسى إلى قفار الحجاز الهادئة ، ولست آملة مهما سما ظرفه، ورقت حواشيه أن يواتينى بالعيش فى حدود الفطرة فى مثل هذه الأصقاع الحبيبة إلى نفسى ، وهكذا استأنفت عودتى إلى الحجاز فنعى إلىّ أول وصولى خبر وفاة والدى ، وتفرق الأسرة بعده فى قرى متفرقة من بوادى الطائف ، فاعتمدت نفسى ، وكعنزة سائمة جعلت من هذه الآفاق الواسعة مرتعا لروحى ، أغدو مخمصة إلى أقرب ضواحى الطائف ، فأبتاع حاجتى من الطعام والقهوة وأعود مزودة بما رأيت فى صرتى آوى بها إلى أول كهف يصادفنى ، أو أثوى فى أى بيت لأصدقائى ومعارفى .

حياة لك أن تقول فيها ما تشاء . إلا أن تسميها غير جميلة . . . فأنا فى متعة روحية دائمة وليس لذاتى مطلب تعتدّ به أكثر من كسرة أزدردها مع شريحة من الشواء ، وفنجان من القهوة ، وحسبى من الحياة جولاتى فى هـذه الطبيعة السافرة ، أصعد فى هضابها ، وأنحدر فى أوديتها ، وأرود مروجها الخضراء ، فأتخذ مقيلى بين جداولها، حتى إذا ما انحدر ميزان الشمس ؛ سرحت إلى عالى السفوح . . أرتع فيها كأنى إحدى السوائم ، وأستجلى جمالها الفاتن الجذاب .

وفى الليالى القمراء أدلف إلى إحدى الروابى العالية على كتف من أكتاف هذه البوادى فأمتع نفسى بمنظر القمر يسيل لعابه على حواشى الوديان الخصبة ، وتنعكس أشعته الفضية على جداولها ، وهى تنساب رقراقة إلى المروج المخضلة الجميلة .

٤

استمع صاحبنا إلى قصتها مأخوذاً بدقة الوصف ، وعذوبة الألفاظ ، وجمال التصوير فى روح صافية طغت عليها قوة الأداء والاعتداد بالنفس والثقة بها .

ترُى أجبارٌ من جبابرة الوادى تقمص هذا الصبا الفاتن ؟!

أم هول من أهوال الليل المترعة بها أساطير عجائز القرى لبس هذه الحسناء ؟ .

أم هو أمام لغز من ألغاز الحياة العجيبة ؟ ؟

دارت كل هذه الخواطر برأسه ، وهى تدلف أمامه متجهة صوب الكهف ، حتى إذا أشرفت برأسها إلى الوادى طرق سمعه صوت ينادى ! . . (فكرة) وسمعها تجيب الصوت ملبية ندائه كأنها معنية به ، فعلم أن اسمها (فكرة) وأن فى الوادى من يناديها .

فدار فى نفسه أن يستكشف سر من ينادى عنزته الضالة ، وقبل أن يستوى للقيام ، كانت تدور على نفسها

وتتجه إليه بابتسامة رقيقة ، مستأذنة فى الانصراف إلى من يناديها .

زاد الأمر فى نظره غرابة ... إذاً فى الوادى من يناديها باسمها وتلبيه ، وقد بلغ من تهذيبها أن تستأذنه فى الانصراف . وهذا الاستئذان تُرى ما معناه ؟؟

أفى الأمر علاقة موطدة إلى الحد الذى يستدعيه الاستئذان؟ أم هو مجرد عادة لا أكثر اقتضتها تربيتها ؟ ، ثم ما هو مدى فصالها ؟ وهل تنصرف إلى رجعة ؟ إن صرتها دليل على ذلك ، وإلا لماذا تتركها ؟ !

وأخيراً فما معنى العناية بكل هذا ؟ ، وسواء فصلت إلى رجعة أو إلى غيرها فما علاقته بجميع هذا ؟ !

سأل نفسه هذا السؤال وأعاده عليها مرات ، فلم يجد لديها جوابا .

وشعر أنه فى حاجة إلى تنسم الهواء عند مدخل الكهف ، فاستوى قائما حتى إذا كان عند باب المدخل ، أشرف برأسه على الأفق المترامى على مد بصره ، تتخلله الأودية الكثيرة تلتوى

فيها مروج حادرة ، وأدواح متشابكة على حفافيها .

ودار ببصره فإذا شاب من رعاة الغنم على كثب من حاشية الوادى القريب ، يقف فى قطيع الغنم ، مترقبا وصول (فكرة) ، ونظر فإذا (فكرة) فى انطلاقها تعدو متجهة صوبه ، كأنها على موعد منه .

وأطال النظر فإذا هما يتصافحان ، ثم يأخذان الطريق إلى صخرة نائية فى إحدى حفافى الوادى ، تاركيْن القطيع يرعى على بعد منهما .

وطال مقامهما فى نجوة من السبيل المطروق ، فعادت الأفكار إلى رأسه ، وعادت الوساس فى أمرها ، ولم يدر بماذا يفسر كل هذه التصرفات ، أيرتاب فى أمرها وهى من عرف شكيمتها ؟ أم يحمل هذا على البراءة وفلسفتها الخاصة فى الحياة ؟

وعن له آخر الأمر أن يمضى فى اعتبارها بريئة ، وأن يتجه بنفسه إلى نجوتهما كأنه ماض إلى أمر عادى ، فإذا قوبل بروح بريئة انتهت وساوسه على نحو مقبول ، وإلا فقد كوّن لنفسه رأيا لا محل فيه للالتواء والتأويل .

٥

ولم يطل تردده حتى مضى فى طريقه يعبر الوادى ، وصادفته شجرة مزدهرة، فوقف يتشاغل بقطف بعض زهورها على كثب منهما فلم تبدر منهما حركة ولم يغيرا من وضعهما ، ولم يتجه أحدهما بكلمة إليـه . فاستأنف سيره حتى انتهى إليهما فأحسنا استقباله ، وقاما إليه فأجلساه بينهما ، وسمعها تصل ما انقطع من حديثها مع الراعى قائلة :

— هذه عادة ما عرفها العرب ، ولم يوص بها الإسلام ولـكننا نتشبث بشيء مقدس وإن كان بعيدا عن المنطق والعقل بعيدا عن الدين .

قال سالم وهو ينظر إليها مرة وإلى الراعى أخرى ، وقد أصبحت براءتها لديه أكثر منها فى كل ما مضى :

— أتحاضرين فى الاجتماع ؟

قالت وقد اتجهت ببصرها نحوه واعتدلت فى جلستها لتواجهه :

— نعم إننا فى شأن خطوبة أخته . تقدم ليدها — كما يخبرنى — رجل من منازل الهدى ، ظاهر المكانة ، فحاز الرضى والقبول . وعن للرجل فى النهاية رأى شاذ فى عاداتهم ، هو أن يرتحل فى جماعة من بنى قومه ، وينزل بهم كأضياف تعلّة لمشاهدة خطيبته قبل البناء بها ، فاعتبروا رأيه شططا واقتحاما لا مبرر له . فما كانت ابنتهم جارية تعرض فى سوق النخاسة والبيع ! ! وليسوا من الضعة بحيث يرى الخطيب ابنتهم قبل بنائها .

هذا شىء يبيحه الدين ويقره العقل السليم . يعرض له العرف شامخ الرأس منفوخ الأوداج ليقول كلمته : (لا) . صاخبة مدوّية ، فنقول بقوله : (لا) و ننسى ديننا و نلغى عقولنا؟!

نحن فى هذه الحياة — يا صاحبى — عبيد العرف والتقليد ، ويبيح الدين شيئا أو يوحى به فيستنكره عرفنا ، فنلوى كمن مسّه خبل ، ونصم آذاننا كما لو كان بها وقر . جريا وراء العرف وتقديسا للتقليد ؛ ويستقبح الدين أموراً ولا يرضى عنها ، فننثنى وراء التقليد والعرف كأنه لا يعنينا غيرهما .

كل الإضافات المترفة فى حفلات الزواج فى بوادينا وحواضرنا يستقبحها الدين، وينظر إليها نظر السرف المقيت ، وأكثر هذه الطقوس التى نقيمها فى أكثر المناسبات ونحن نعرف بعدها عن العقل والمنطق نرزح تحت أعبائها مكرهين أو راضين ، لأن العرف وشاها بشىء من التقديس ، ولأن التقليد نصب لها مكانا من الأبهة والتبجيل .

وما آتينا اليومية ، وشؤوننا ، ومصطلحاتنا لو كنا نستوحى فيها ديننا وعقولنا لجئنا على تسعة أعشارها محواً وحذفا ، وعشنا بالقليل متدينين كالرعيل الأول فى الإسلام ، بسطاء كأول عاقل دب على الأرض .

الدين يحكم للمرأة على وليها أن يأخذ برأيها فى خطبتها ، ويقر العقل ذلك بوصفها شريكة مقبلة على أهم مشروع فى حياتها فلا يلبث العرف أن يقحم نفسه ، وأن يحل محل الدين والعقل ، ليقول كلمته عنهما ، وينفذ أمره دونهما .

والمرأة فى الحضر لا تصك وجهها فى خطيبها الرجل ، بل تضرب بسور بينها وبين قريباته من النساء ، لئلا يرينها بمناسبة

الخطوبة فتغدو جارية فى سوق النخاسة والبيع ! !

كل هذه سفسطة تنافى تعاليم الإسلام، ومنطق العقل ، ومع هذا فنحن نتعسف إرضاء لها ، وننزل على إرادتها وحكمها طائعين .

أَلا إن جميع عاداتنا وأخلاقنا موبوءة بالخرافة والتقليد ، أَلا وإن التقليد والخرافة صنوان يجدان مرتعهما خصباً فى منابت الغفلة والجهل ! !

لنتعلم . لنتعلم يا صاحبى بأحدث الطرق المبسطة التى نعنى فيها بالعقل تكيفه وتهيئه للفهم أكثر مما تعنى بالمادة والكم نزجيهما ونفخر بهما .

وأسندت رأسها بيدها كمن يستجم من إرهاق واصب ، ثم عادت فرفعت رأسها وتطلعت إلى الأفق البعيد ، وندت عن صوت انتزع من أعماقها : يا رب بهذا حكمت مقاديرك !!

ثم قفزت كلبؤة ضارية . وعدت منطلقة فى مسارب الجبل دون إنذار أو وداع .

وتطلع سالم إلى الراعى ، فإذا هو مشدوه لم يفق بعد من

تأثير كلماتها فقال ، يسبر غور ما تركت فيه :

— أتراها عاقلة ؟ .

قال الراعى ، وقد بدأ ينكت الأرض بجريدته الصغيرة :

— إنه لا ينقص هذه البوادى إلا عشرون من هذا الصنف المجنون يقلب بنا الأرض ، ويأتى على جميع أصنامنا .

وما أتم جملته حتى بدت له واحدة من غنماته تترك القطيع مغـذة فى الحقول فغدا يجري نحوها مشغولا بها .

وظل سالم وحده يتطلع إلى مسارب الجبل تصعّد فيـه الفتاة كأنها تمضى إلى غير غاية ، وقد بدت فى ساقيها الدقيقتين غزالا يتوثب بين النتوء والصخور .

٦

كانت الشمس قد مالت إلى الاستواء ، وعكست أشعتها من فوق التلال على المروج الخضراء الممتدة بامتداد الوادى ، وكنت تسمع رغاء الإبل وهى ترزح تحت أحمالها من العنب والسفرجل آخذة طريق الطائف إلى مكة ، وكانت الفتاة على

كثب من صاحبنا ممعنة، فى مسارب الجبل لا تلوى على شىء، وكان يعلم أن صرتها وموئل ذخيرتها فى غير ما سلكت من السبيل، فإذا استمر تصعيدها كوتها الشمس بعيدا عن مؤونتها وفقد بدوره فيها أنيسا يقضى يومه معها بأمتع ما تقضى به الأيام الجميلة !!.

وضحك فى نفسه لخاطره الأخير.

ثم دار على عقبه وعاد أدراجه إلى كهفهما بالأمس، فجمع صرتها بما تحوى، واتجه فى طريقه إلى الجبل مترسما خطواتها حتى انتهى إليها وقد مال قرص الشمس وراء الأثلات البعيدة فابتدرته مستبشرة متهللة.

— حيهلا بك وشكرا.

— وسعدا بلقياك طيبة مسرورة بعــــد الذى عانيت من نفسك.

قالت: لنمض فى جمع الحطب حتى إذا شبت نارنا ونضجت قهوتنا استأنفنا ما يحلولك من حديث.

ومضت ساعة كانا فى نهايتها قد تبلغا ما استطاعاه من

طعام ، وبدت فناجين القهوة يعقد عليها الدخان سحبا رقيقة شفافة ، واتكأ أمامه على ساعده ، وابتدرها بالحديث :

— أتحبين ؟

— ما تعنى ؟

— أعنى كل ما فى هذه الكلمة من معنى .

— أحب ... أحب الليل فى هدوئه الغافى ، والقمر تغشاه غمامة شفافة ، والأفق المترامى لا يحده البصر ... أحب الجبال الشامخة كأنها تعبر عن كبرياء صامت . والسهول المنبسطة كأنها مطرزة بالوشى ، والجداول الضافية يترقرق فيها ماءعذب ... أحب البكور تشقشق فيه العصافير المغردة ، وأحب الشمس فى ضحوتها تظللنى من سعيرها دوحة فينانة ، وأحب الأصيل تنعكس فيه الشمس أشعة ذهبية براقة ، أحب كل ما هو طبيعى فى الحياة تصقله يد محترفة وكل ما هو صحيح لم تزينه الصناعة المبهرجة . أحب الرأى مصدره المنطق السليم ، والقوة مبعثها الحق ، والفضيلة يصدع بها رجل برىء من الشهوة والغرض . أحب فى الحياة محمدا صلى الله عليه وسلم .

أحبه لأن أغراضه شريفة ماالتوت قط .

لأن سيرته صورة من تعاليمه .

لأن تعاليمه بيضاء نقية لم يُكدرها إلا أهواؤنا .

أحبه لأنه كان قويا على نفسه قبل أن يكون على غيره ، صادقا فى سره كما هو فى علانيته ، عادلا بلا ميزة لأصفى أصفيائه ولا استثناء لأقرب أقربائه ..

لينا من غير ضعف .

رقيقا دون تكسر .

فقيرا ما لانت قناته لجبار فى الأرض .

غنيا ما شبع قط من طعام الدنيا .

عفا مابر أهله بشىء من لذاذة الحياة .

٧

قال وقد أعتدل فى جلسته وتوجه إليها بوجهه :

أمامى إذن شاعرة تعبد الله !!

— هو ذاك . فأنا شاعرة بهيامى فى جمال الطبيعة ، متعبدة

لافتتانى بالمثل الكامل فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم . فهل هذا كل ما تريد أن تقول ؟

— إنه ما أعنيه بالضبط ويهمنى بعده أن أعرف . ألا تحبين حب أهل الدنيا ، وتعبثين عبثهم؟؟

— لست نبية ولا ناسكة ، وليس فى حياتى ما يصفو من العبث إلا لمحات أصفو فيها لوجدانى كما يفعل كل مؤمن . . . أما الحب . حب أهل الدنيا فحب تقليدى سخيف . أنا من غواته . لأنى سخيفة . أحب نفسى .

قال : وثمة حب آخر قد لا يكون من السخف بالقدر الذى تتصورين . هو حب الغير من أهل الحياة .

— أنت مدنف معنى بقيادى إلى بحثك ، وعلى رغم أنك ترانى أجملته تأبى إلا أن أسهب عسانى أرضى ناحية فى وجدانك .

— ولكنك لم تجملى شيئا مما تشعرين أنى معنى به من فلسفة الحب .

— أجملت عنـد ما قلت . إنى سخيفة أحب نفسى . . .
وأنت ترى أن الحب باللون الذى تريد فيما يرافقه من عشق وغرام وهيام لا أكثر من أنانية وحب للذات . . . يأخذ أشكالا عدة ليستوى فى نتيجة واحدة هى : حبك ذاتك ، وإيثارك متعتها ... فأنت عندما تهوى الجميلة تهوى فى الواقع لذة نفسك فيها أكثر من أن تهواها لذاتها .

— والأمر فى شأن الفتنة بجمال الطبيعة وهواها لا يعدو ذلك ... وهواك بلذة نفسك فيها لا أكثر من هواك بذاتها .

— الحال فى الأمرين واحـد ، لـكنك وأنت تهوى الطبيعة تحب ذلك الحب الرتيب الهادىء . . . الحب الطبيعى المخلوق لإيثارها ومتعتها ، فأنت تستجلى الصفو ما شاءت لك اللذة ، وتصطفى المتعة ما أراد لك . أما وأنت تحب الجميل فحبك أبعد من أن يكون رتيبا ، وأبعد من أن يستصفى ما شاءت لك اللذة والهوى .

— تريدين أن تقولى إن الحب الرتيب هو الحب الطبيعى ، وإن الحب العنيف حب غير طبيعى .

— هو ذاك . . . ولا بد لإيضاح الفكرة من ترتيب منطقي يبدأ بتفسير الحب في رأيي ... فأنت تحب كذا يفسره أنك تحب ذاتك فيه أكثر مما تحبه نفسك .

وحبك ذاتك معناه . حبك لذتها ومتعتها ، فأنت عندما تحب المنظر الطبيعي استصفيت اللذة والمتعة كاملة . أما وأنت تحب الجميل من الكائن الحي فقل أن تستصفي متعتك كاملة .

لكل كائن حي نوازع ومشارب ومثالب لا تضمن توافقها لما تنشد من متعة ولذة ، وللجميل من مناظر الطبيعة وجه واحد . . . لا يهددك فيه اختلاف النوازع والمشارب ، فأنت تترع هناءتك بالقدر الذي تهوى .

وقديما خلط الناس بين الحب الذي هو استصفاء اللذة مجردة في الشكل الجميل بأوسع معانيه دون استثناء أو استئثار ، وبين الغي الذي هو حصر الجمال في أضيق حدوده والاستئثار به .

الحب في شكله الأول معناه — الجمال شائع في كل جميل على الأرض شيوع المتعة به دون استثناء أو استئثار .

والحب في شكله الأخير — حصر الجمال في حالة بذاتها تستثنيها لنفسك وتقيدها بك . . . فأنت غاوٍ وفيما استثنيت ، ظالم لما استأثرت .

والحب في شكله الأخير غلطة الأجيال والحقوب تحدرت إلينا في أسلوب كانت القصة والوضع أهم عناصره ، وتركت الغلطة أثرها في وعى الأجيال حقبة بعد أخرى حتى استوى العهد الذى حلت فيه الغلطة محل الحب الطبيعى . . . فنحن اليوم نحب ، بمعنى أنا نضفى الجمال في حيز ضيق ، ونحب بمعنى أننا نستذل لحاكم مطلق ، أو نستبد بعبد ضعيف . . أو نحب أننا نشقى بالتوفيق بين أرواح تتنازعها مشارب مختلفة باختلاف الأهواء والأغراض ومنافع الذات .

شكا كثيّر من عزة ، وبكى جميل من بثينة ، وجن قيس بليلى في صور لا ندرى كم عانى الوضاع والقصصيون فيها ، ولكنك تدرى أنها كيفت الحب في جميع العصور بعدهم ، وصاغته في القالب الذى شاءه الوضاع والقصاص لقيس وجميل وكثيّر ، ولو كنت قصصيا بارعاً ذا خيال واسع لاستطعت

أن تضع للناس قاعدة جديدة للحب فى قصة محبوكة تجعل منها مثالا للحب فى أسلوبه الجديد .

فالحب بهذا المعنى عدا أنه أنانية جامحة ، وحب للذات ، أرى أنه تقليد سخيف لفكرة تحدرت إلينا من أجيال ممعنة فى القدم ، غذاها خيال الرواة والقصصيين .. وهو بعد هذا أو قبله ؛ إن شئت ؛ معرض للذل ، والنزق ، والتجنى كما هو إقحام متكلف للمزج بين قلبين متحابين ، وفى كل منهما نزعة متأصلة للاستئثار والأنانية .

بربك ما معنى الشكوى بين الحبيبين ؟ ثم ما معنى اللوعة والأسى والبكاء ؟ ثم ما معنى الجنون أو الموت ؟

أليس ذلك نتيجة إقحام متكلف على غريزة شخصين ! ؟

إنه ليس أكثر من أن تقول العادة ، ويقول التقليد إنهما تحابا ، أما غرائزهما الشخصية ، ففى منأى عن ذلك بما ركب فيهما من حيوانية .

إنهما يتحابان اليوم ، وينعمان معا بتأثير هذا المخدر الوجدانى ، فلا تستوى سحابة النهار حتى يكدرهما ذل أو

يستفزهما كبر أو تجنٍّ ، فإذا عصب الحيوانية الأصيل يستيقظ ، وإذا إحساسها يرهف حاداً ، وإذا النفس تسمع فى صمت لنداء الغريزة ، فإذا الجو يكفهر من جديد ، والسماء تتلبد بالغيم ، وإذا هدير الرعد ينذر بالشر والويل ، وإذا العاشقان بين الجموح التقليدى والهوى الغرير يتجاذبهما مد وجزر ، وإذا التنابذ والشكوى يحلان محل الخيالات الحالمة والوهم الزائف .

لا بد فى هذا الكون من سيد ليعيش المسود ، ولا بد من ضعيف لتستقيم القوة ، ولا بد من النفع لتبقى الحياة فى الأرض ! .. هذه عناصر كونية لا معدى فيها لمرتاب ، فإذا تحاب عاشقان ، أو سمت أذواقهما عن كل القواعد ، أو صفت من كل المكدرات ؛ فلا معدى لهما من تخطى عناصر الكون الأولى .

لا بد لهما من سيد ومسود ، ولا بد لهما من ضعف يقابل القوة ، ونفع يحفظ التوازن ، فكن محبا أو محبوبا لتكون سيدا قويا نفعيا ، أو مسودا ضعيفا مسخرا ... وفى الأولى ظلم ؛ وفى الثانية عذاب وذل .

هذا فى عاشقين تبادلا الحب وصفا بينهما الود . . فما ظنك بهما طرفين أحدهما فى السحاب والآخر فى التراب ؟ !

إنه منقلب وصفه المحب الشاعر عندما قال :

وعش واحداً فالحب راحته عنا   وأوله سقم وآخره قتل

ونسلوه فى ضناه وسقمه ، وقد نواسيه بعد قتله فنترحم عليه (... كان رقيق الحواشى .. مهذبا ظريفاً ، خفيف الروح .. تسيل أعطافه عذوبة وجمالا) .

وننسى أنه كان مجموعة أعصاب لا يستخذى لمنطق ، ولا يحتكم لعقل ، وأنه رحمه الله عاش مجنوناً ومات جبانا ! !

لو كنا ونحن نذكر للعاشق رقته وعذوبته ؛ لا ننسى غيرته وحقده وأنانيته الجامحة ؛ لتفتحت عيوننا على ترهات الحب من هذا النوع ، وعافت نفوسنا ما انطوت عليه من رذائل ، ولكننا عبيد العادة ! وقد انساق الحب إلى وعينا الخفى انسياق آلاف الرذائل غيره . . فنحن عبيد إلى أن تستقل عقولنا ، وتخلص مما ران عليها من خرافة . . غير آبهين بما دسّ التاريخ فى دمائنا من لوثة التقاليد الزائفة !!

تحرر يا صديقي من التقاليد السخيفة ، وعد إلى طبيعة الإنسان الأول فى الحب تجد فى الآفاق الواسعة متسعا لهناءتك، وتجد فى المتعة بها اللذة الرتيبة لا تعصف بها نزعة ، ولا ينازعك فيها هوى ضال جامح .

قالت هذا ، وأسندت رأسها إلى الأرض ثم تركت جسمها الرخو يرتخى على نفسه ، وأطبقت عينيها وفمها واستسلمت لصمت عميق كأنها تستجم من وكد واصب مرهق .

٨

لم يشأ أن يقلق راحتها فانتحى جانباً منها ... كان يمشى وفى خطواته ثقل كمن آده عبء فادح ، وأقلقته أفكار مبهمة .. وانطلق فى مشيته ضيق الخطو مقبوض النفس إلى ربوة مرتفعة يكسوها عشب مخضل ، وتمتد على جوانبها فروع خضراء ، ثم جلس على حافة منها مطلة على الوادى ، وأرسل عينيه تجولان فى الأفق وقد ذابت الشمس وراء الشفق فتكسرت أضواؤه الفاتنة على منحدرات التلال البعيدة ، وانعكست أشعته على الغدران المنتشرة بين حنايا الوادى .

وسبحت خواطره ، وانطلقت أفكاره فيما آل إليه أمره في مثل هذا المكان القفر... ترى أي الصدف ساقته إلى طريق هذه الفاتنة ؟ وما شأن أهله بعده وهم يجهلون سُدته ، ولا يعرفون طريقه ؟ وإذا كان فيهم من ألف تغيّبه وهيامه بالتشرد في الآفاق فإن فيهم حديث العهد بهذا الشذوذ ... زوجه الجديدة وأطفاله الصغار، وهم يعدون عليه ثوانيه ، ويرقبون أوبته بعد كل ساعة وأخرى ، ثم ما هذا الشعور المبهم ؟ أغبطة هو وسرور بالحال الذي انتهى إليه ، والصدفة التي انساق إليها ؟ أم استياء وقلق استوليا على نفسه من جراء هذا الطارئ الجديد ؟ .

إنه يشعر أنه ليس مطلق الإرادة لينصرف إلى نفسه ، ويعود أدراجه إلى بيته ، فما مبعث هذا ؟.

أهو غريزة الفضول المتأصلة فيه ولا أكثر ؟

أم هو عاطفة هادئة وحنو نزيه ؟

أهو نزوة حادّة من نزوات النفس المريضة ، لا يملك نفسه معها ، ولا يضبط عنانه فيها ؟.

أهو غرض شيطاني جامح أضله وأعماه ؟

وثارت نفسه لخاطره الأخير ، وصردت عليه ، فما هو بالحقير للشيطان يجمح به أو يضله أو يعميه .

وعاوده القلق مرة أخرى ... إنه يشعر أنها دخلت فى نفسه أكثر مما يجب ، واحتلت من تفكيره أكثر مما يسوّغه الفضول فى العادة ... وإن العطف والحنو ليس فيهما من يقظة الشعور ووقدة الحس ما يشعر بهما الآن .

إنها إذن نزوة النفس المريضة ونكسه القلب المبلّ من علل قديمة .

وبعد ... فما مكانى منها ، ونصيبى من دخيلة نفسها ؟ . إنها ولا ريب مدلة بقوتها وثبات جأشها ، ولها من أفلاطونيتها وفلسفتها وكبريائها حصن لا تنفذ منه سهامى ، ولا تتطرق إليه أحلامى ... وعجب من نفسه كيف تطرقت هذه الهواجس إلى قلبه الخلىّ ، وكيف نزل بصديقته إلى مثل هذه الظنون المريبة ، وشعر فجأة بثقل الهواء على رئتيه ، واطراد أنفاسه اطراداً غير منتظم ، فهبط من حافة التل ، وأخذ يثب من مكان إلى آخر ، يصعد صخرة وينزل وهدة ، يستنشق النسيم

الرفاف حتى سكن وجيبه وانتظمت أنفاسه .

وعاد طريقه الأول إلى حافة التل ، واستوى مكانه يسرح بصره فى أشجار الرمان الممتدَّة فى أحشاء الوادى تعرش بينها الكروم ، وتلتف خلالها شجيرات السفرجل ، تموج تحت أقدامها قيعان لامعة من البرسيم ، وعلى حفافى الوادى ، وبين أكناف التلال ، قامت بضعة منازل ، تتجللها أدواح ضاربة فى أجواز الفضاء ، وتلتف فى عرصاتها أشجار التين فينانة فيحاء .

كان مأخوذاً بروعة الطبيعة وجمالها الفاتن ، وظل على حالته وقتاً لايدرى أنه طال حتى شارف الفجر ... كان فكرة هائمة سابحة من كثيب فى الوادى إلى مرج ، ومن غصن شجرة إلى صفة جدول ... وكان شعوراً مبهماً لايحد ولا يقدَّر. وكان قصيدة حائرة فى فم الطبيعة لا موضوع لها ولاعنوان .

وحانت منه التفاتة إلى المكان الذي ترك فيه صديقته تستغرق منذ البارحة ، فوقع نظره على قَدٍّ ممشوق ، بائن الطول تهدلت من رأسه خصلة فاحمة ، كان النسيم الرفاف يعبث بها

فى هون رتيب ، وقد جمعت كفيها النحيلتين تسند بهما رأسها، فانحلَّتْ عرى ملاءتها عن جيد دقيق ، ونضا لثامها عن عينيين فاترتين ، تحف بهما أهداب وطف ، ويقوم بينهما أنف أشم كأنه حارس طويل النجاد مكلف بالعناية بهما ... يعلوه جبين متسع كأنه صفحة من كتاب الحياة ، وفم ذابل رقيق متغضن عليه طابع فيلسوف أرهقته الأيام .

وكأنما أحست بروحه الهائمة تصافح وجهها ، ففتحت جفنيها وافتر ثغرها عن ابتسامة اختلطت معانيها عليه ، ثم تحاملت على جسمها الرخص ، واستوت قائمة آخذة طريقها إليه ، فأسرع يلقاها وقد ذابت معانى الكلمات فى فمه ، ولم يجد حرفاً يحييها به تحية الصباح ، فلم يربكها حياؤه ، بل شجعها على أن تمد يدها إلى مصافحته ، وتبادره فى غير ما خجل : « كيف أصبح أخى ؟ » ... ثم تومئ إليه أن يتبعها إلى مجلس البارحة من التل ، فما ملك أن أطاعها فى أدب وحشمة ، وأن سايرها فى خطى متثاقلة مختلجة ، كما يساير الطفل أخته الكبرى الوقور .

واستقر بهما الجلوس ، ولم تبدر منه بادرة ، ولم يفتح له معنى ، ورأت هذا فى عينه ، وأحسته طاغياً على وجهه فقالت :

« أترانى بت من ليلتى ناعمة و بت تصلى ؟ » .

فتركت نغمتها فى نفسه من المضّ والألم ما لم تتركه آلاف الكلمات اللاذعة ، وقال : « أتتهكمين ؟ » . فقالت وقد راعها ذلك منه : « أنا لا أتهكم بك ، ولكنى أسترحمك لتكون صادقا وإذا شئت أن تعرف أنى راضية النفس من أمل واحد بدأ يتجلى لى فى حقيقة راهنة ، وأن ذلك الأمل هو أنى بدأت أشعر أنى أختك ، فاعرف إلى جانب ذلك أن هذا الإخاء سوف لايصدق ولا تقوى آصرته وأوشاجه إلا على أساس من الصراحة والصدق .

يقولون: إن أدواءنا فى الحياة أكثر من أن يحصيها العد ، وإن رزايانا لا تقف عند حد ، ويقوم إلى جانب ذلك ألف حكيم ومصلح بتشريح هذه الأدواء والأوضار ، ليفرضوا لها من أصناف العلاج ما يملأ أضخم المجلدات ويرهق تعاطيها أقوى الأمعاء ، ومع هذا فنحن كما نحن ، لم نتقدم خطوة إلى

الشفاء أما أنا فأتحدى كل إصـــلاح لايقوم على أساس من الصدق ... ليتهم تركوا كل أوبائنا ولم يعالجوا فينا غير ناحية واحدة هى الصدق ... إذن لاستقامت منا أمة لاتظل الشمس مثلها ، ولجاء هذا العقار على كل أمراضنا جملة وتفصيلاً . . . لنصدق بعضنا إن أردنا أن نتمتع بأخوتنا ولو إلى حد ، ولـكن أكثر وضوحاً من الشمس عند ما تطالعنا من هذه القمم .

٩

كانت تقول وليس في صوتها النبرة الرقيقة والألفاظ المتكسرة على شفتى فتاة كاعب . . . كانت العبارات تتدفق فى قوة كما تتدفق من لسان مفوه ألِف الخطابة والبيان ، وكان جِدُّ الأب ، وصرامة الأم تتجليان معاً فى ملامحها فتبددا أحلام الواهم فى ذبولها وجمالها .

قال : ولـكنى لم أصلّ من ليلتى ولم أتعبد ...

قالت : وتتهمنى بعد هذا بالبداوة وتنسى أنك تتهجى . لست ألومك يا صاحبي فقد نشأتَ فى بيت كانوا يعلمونك

فيـه العبادة على نحو خاص قوامه المسبحة وترتيل الأذكار المنتقاة ممـا دبجت أقلام المحررين والمخرفين ، أما العبادة كاستغراقة في ملـكوت الله فذلك سر لا تـكتنهه ، ولم تتفتح مغاليقه لذهنك .

ليست العبادة في ورد أستظهره ، وإنما هى فى أفق شاسع أستجلى سر الله فيه (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك) إن فى هذه التلال القائمة على حفافى الوادى ، وهذه الأدواح الذاهبة فى طبقات السماء تصافح أقدامها الجداول الصافية ، وتلتوى على سوقها العساليج الخضراء وألواح (البرشومى) يترقرق فيـه الندى ، والعنب يتسلق أوراقه ما صنعت يد الإنسان من هياكل ، وثمار السفرجل والرمان والـكمثرى تتدله فى أشجارها تدله النشوان كلما عبث النسيم . . استغراقة لا تجدها فى سجادة بطنت بأنعم ما فى المصانع من حرير . إن فى الأريج الفواح من المروج المخضلة ، وفى أشعة الشمس المنعكسة من خلال أغصان التين ، وفى رقرقة الجداول المنسابة بين الجذوع . وفى شقشقة العصافير وتغريد القمارى

ونقيق الضفادع . وخرير مياه السواقى ، تسابيح لا يقولها لسان ، وآيات لا يقوى عليها بيان ، وحجج دامغة لا يعدل بها كل ما كتب العلماء والفلاسفة عن حقيقة الإيمان بالله .

١٠

ودبت الحياة فى مسالك الوادى ، وبدأ ثغاء الماشية يختلط برغاء الإبل ، وأخذ البدو والفلاحون ينسلون من من شقوقهم فى السفوح القريبة . وسمع من ينادى باسمها : (فكرة) فالتفت فإذا صاحبها بالأمس يحث أغنامه متجها إليها . وكانت فكرة فى شغل عن ندائه ، تلهو فى شجيرة من الورد تركز أغصانها على عود غرسته بيدها ، لتسوى فروعها ، عليه كما لو كانت تعنى بشىء يخصها ، وصافح النداء أذنيها بعد لأى ، فهرعت إليه تستبق خطاها ، وانحدر خلفها يدفعه فضول ملحّ فى تسنم جديد عنها ، فسمعه يبشرها بوصول النفر من أهل خطيب أخته فى جماعة من علية (الهدى) وأنهما بعد اتفاقهما على تفصيلات الزواج عينا ليلة الجمعة القادمة موعداً

لحفلة الزفاف ، وإنه آت لدعوتها ورجائها فى أن توافيهم قبل موعد الزفاف بمدة تكفى لمشاركتها الرأى فى كل ما يتعلق بالزفاف .

أنصتت إلى صاحبها الراعى وفى محياها علامات الرضا ، وبين شفتيها تنزوى ابتسامة حلوة ، ثم زوت ما بين عينيها كمن يشير إلى ناحيـة فى الموضوع لم تستوف بعد ، والتفتت فى أدب إلى ناحية الراعى ثم إلى ناحية سالم وقالت :

— أجل ... وسيكون كلانا قبـل موعد الزفاف عندكم ، ولست أرضى من أخى سالم أن يتأخر عن ليلة الحفل ، فنحن أحوج إليه قبل موعده ... وفى سلامة الله يا راجح .

وانصرف راجح الراعى مسروراً بما تضمنه حديثها ، فقد أضافت إلى دعوتها شخصاً لم يكن فى موضوع الدعوة فى أسلوب رشيق ودود .

ولم يدر سالم أيكبر عليه إقحامه فى الدعوة ويستنكفه ، ويعترض عليـه أم يقبله ويرضاه ، ويهنأ به كبادرة من بوادر الحب والولاء به والعناية .

ولم تمهله حتى يستجمع أفكاره ، بل أشارت إلى فىء ظليل على حافة جدول ضحضاح ، وقالت وهى تضع يدها على كتفه :

— تعال نستفىء ونضع برنامجنا على النحو الذى تراه .

ونسى تردده بين الاستنكاف والقبول وانساق فى صحبتها حتى تخطيا الجدول ، واستقرا على حافة تحت أشجار السفرجل .

وقالت وهى تعبث بأناملها الدقيقة فى الماء :

— لك ياصديقى زوجة تبيت على مثل نار الغضا انتظاراً لأوبتك ، ولك أولاد يستبطئونك ويرقبون عودتك فى شغف ولهف ، فارجع إليهم وامض بينهم ثلاثاً من الأسبوع أو أربعاً ، أكون فى أثنائها سبقتك إلى مكان العرس وقضيت من حقهم علىّ ما قضيت إلى أن توافينى ليلة الزفاف ؛ فنشترك معاً فى ليلة بهجة وسرور حافل .

قالت هــذا وهى تربت على كتفه فى رقة ولطف ، كما تدهده أم طفلها فى دلال وحنو ، وما ختمت حــديثها حتى أشارت بيدها إلى طرف الجادة النازلة فى تعرج إلى فم الوادى ، ووضعت يدها فى يده تودعه ، وتسلمه إلى الطريق .

١١

كانت المرة الأولى التى شهد نفسه فيها طفلا بعد أن بلغ مبالغ الرجال .. تربت على كتفه امرأة وتدلله وتضع له برنامجا يسير عليه فى حدود معينة ، ثم رأى نفسه ينساق فى الطريق الذى أرادت ، وشعر أن نفسه تتضاءل أمامه وتصغر .. ومر بأطفال يعجنون من الطين أقراصاً صغيرة يجففونها فى الشمس. وقد وقف فيهم غلام يشير إلى مواضع النشر بين شجيرات الورد والكادى ، فراقه عبثهم وهيمنة الغلام عليهم ، وبدأ يزن نفسه بمقياسهم ، فلم ير فارقا كبيرا بين عبثه وعبثهم لا أنهم يهيمن عليهم شخص من لداتهم بينما تهيمن عليه امرأة من عرض السابلة لا يعرف من هويتها إلا ما تحدثت به ، وتربت على كتفه كما تربت الأم على كتف طفلها الغرير ... وانساقت رجله مع السابلة كأنه لا يعرف لنفسه وجهة معينة ، وكانت الشمس ترخى ذوائبها منعشة صفراء على رؤوس الهضاب ، وطال به الطريق ، وغابت الشمس وراء البيوت الصغيرة

المنتشرة على قمة جبل بعيد ، يحث سراه في وجهة السابلة ؛ يؤانسه رغاء الإبل المثقلة بأحمالها من السفرجل ، والخوخ ، ويطربه أزيز صناديق العنب الموسوقة على ظهورها في نغمة مطردة خافتة .

وأشرف على الطائف بإشراف ذكاء على سهولها المنبسطة فأخذ سمته إلى داره ، وقضى يومه بين زوجته وأولاده . سادر الفكر ، ساهم النظر ، يتلقى أسئلتهم المتلاحقة في غير وعى ، ولا فهم ، ويجيب عن بعضها في غير تدبر ولا تحديد ، واستطاع أهله بعد المشقة والإرهاق ، أن يعرفوا أنه مسح فيافي واسعة وجبالا شاهقة في غير ما ضالة ولا قصد ، وقنعوا بما عرفوا براً بأبيهم ، واحتراماً لطيبته المعروفة عندهم بالكرامة والنبل .

وقضى يومين بعدها تنتابه نوبات من الحمى فيها ما يشبه الذهول . وكان يهذى بكلمات متقطعة ، لا يستقيم لها معنى . وفى الفترات القصيرة من الأصيل ، كان يعاوده نشاطه ، فيتبع نفسه إلى أقرب الضواحى من الطائف ، وينتحى ناحية قصية مشرقة من مسيل العقيق يناجى فيها نفسه بمختلف الأفكار

والوساوس . ولقد قال لنفسه ألف مرة : إذا لم يكن كل هذا حب ، فأى شيء آخر يكون ؟؟ وإذا كان حباً فما معناه ؟ وأنا بعل زوج ووالد أطفال يتقاضونني من العناية والسهر مالا يتفق مع مثل هذا العبث ؟ .

ثم من هو هذا الذى أحب ؟ ماهى هويته ، وما مشربه الصحيح فى الحياة ؟ .. إنها لاتعدو أن تكون كاسمها ... فكرة حائرة فى الحياة ، وشاذة على أوضاعها ، ناشزة عن لداتها .

إلامَ يمضى بى هذا الهوى الطائش ؟ وإلى أى حيرة تسلمنى نفسى الهائمة ؟ .

وعاودته النوبة فعاد إلى هذيانه بها ، وحنينه إلى قهوتها اللذيذة ورشاقة حديثها وطلاوته ، وجمال أفكارها الناشزة ، وعاوده ذكراها بما فيه من صباحة وجه ، وخفة روح ، فتحرق شوقاً إليها ، وتمنى لو حمله البرق إلى منازلها .

وظلت وساوسه على هذا النحو تتجاذبه بين مد وجزر طيلة ثلاثة أيام كاملة ، وفى اليوم الرابع كانت عزيمته قد صحَّتْ على استئناف الارتحال والعودة إلى أرض الميعاد ، فمهد فى بيته

لهجرة طويلة الأمد ، وغادر الطائف يسوقه شوق ملح ، وتلهبه عاطفة مشبوبة .

وصادفته السماء بوابل مدرار فلم يثنه ذلك عن المضى ، وسالت الوديان حوله تجرف معها ما تحدر إليها من التلال من أحجار وصخيرات صغيرة ، وتعذر المرور على حوافى المروج الخضراء ، لبعدها عن طريق السيل ، وأقفر الطريق إلا من فلاحات انتشرن بين المروج ، فى أيديهن ما يشبه المعاول يصلحن ما فسد من مجارى المياه ، أو يلذن بحائط من حيطان السواقى ، أو شجرة من أشجار التين الكبيرة ، يتقين المطر ، ويرقبن عن كثب مجارى الجداول المنحدرة إلى البساتين .

ولاذت راعية بأغنامها فى كهف مرتفع بجوار أحد البساتين ، وكان المطر قد زادت شدته وتعذر معه السير فلم يرد بداً من الانزواء ولو إلى لحظة مع الأغنام ، فحشر نفسه بينها ، وحيَّته الراعية بإفراج الطريق له ، وإزاحة إحدى معزاتها لإخلاء مكان له .

وانطوى على نفسه يفكر فى هذا الطيش الذى ينساق

فيه ، وهذه الرعونة التي لايدرى مبلغ تقديرها عند (فكرة) فهى على ما أوتيت من ذكاء وظرف وتقدير لقيم الأشياء لم تفطر على الرقة وحساسية العاطفة التي يمكن أن تزن بها إقدامه فى سبيلها ، وتكبده المشاق سعياً إليها .

وإنه لكذلك وإذا بصوت رقيق يصافح أذنه آتياً من مرج قريب من بطن الوادى . . . مَسَّ أُذنه فكأنما مس زِرًّا كهربائياً سرى تياره من أخمصه إلى رأسه في رعشة قوية انقض لها واقفاً ، ولم يدرك مدى المسافة التى تفصل رأسه عن سقف الكهف ، فدق عنقه دقاً عنيفاً وهوى على الأرض مسجى يصب الدم من جرح عميق فى رأسه .

١٢

لايدرى كم مضى على غيبوبته وهو مسجى فى أرض الكهف ... ولكن الذى يدريه أنه عندما فتح عينيه ليرى ماحوله لم يجد فى الكهف إلا بدوية عجوزاً تصلح من ضماد البن فى رأسه، وتغسل مابين عينيه ووجهه بماء فاتر ، ففتح فاه

ليقول شيئاً أو يسأل عن شيء، فلم يسعفه النطق ولم يقو لسانه على الحركة، فعلم أنه لا يزال تحت تأثير الصدمة العنيفة، فأطبق عينيه واستسلم لنوم عميق.

ولا يدرى كم مضى عليه قبل أن يستفيق ويستعيد نشاطه ولكنه يدرى أنه زاحف على بطنه إلى باب الكهف فأشرفت عينه على النور وامتدت أمامه السهول الخضراء، بامتداد الوادى تلمع بين أوراقها قطرات الندى ... وأقبلت عليه البدوية العجوز تحمل فى كفها وعاء نظيفاً طافحاً باللبن الطازج وقدَّمته إليه فى حياء وهى تستر نصف وجهها بجزء من كمها، فشربه مقدراً لها هذا العطف وهو يقول :

— كم ساعة قضيتها نائماً يا أماه.

— لم تنم ساعات يابنى. فقد نمت يوما وليلة كاملتين أرجو لك بعدها العافية والصحة.

— تعنين أنى أويت إلى الكهف أمس ؟

— نعم وقد أزحت إحدى معزاتى لراحتك عند مارأيت

آثار المطر شديدة عليك. إلا أنك لم تستقر طويلا حتى نفضت نفسك ترمع الخروج وقبل أن أنبهك إلى سقف الكهف كان قد صدمك فهويت . والحمد لله على عافيتك .

— هو ذاك يا أماه . ولم يسعفه النطق بأكثر من هذا ، فكان حقها عليه أن يقدر صنيعها بكلمة طيبة ، ومن حقه على نفسه أن يتعرف منها حقيقة الصوت الذى سمعه ، فهى أعرف الناس بناحيتها . ولكن الألفاظ ماتت على شفتيه ، والمعانى غاصت فى فؤاده الفارغ . ولمح العجوز تمضى إلى كوخها فى ظل ساق غليظة من أشجار الجميز ، فتحامل على نفسه وقام يتبع خطواتها حتى إذا بلغ من كوخها ما يبلغه الصوت منها ، ناداها فبرزت تتبعها صبية صغيرة فى يدها قصعة من ثريد ، تعلوها قطع اللحم ، عطفت بها ناحية ظليلة من شجرة الجميز ونادت — أن تفضل فقد أبطأت عليك ، لأن ابنتى الصغيرة لا تجهز حاجتنا بدون معونتى .

قال وهو يأخذ طريقه بين فروع البطيخ المتعانق تحت مواطىء أقدامه :

— لا أحس جوعا كثيرا ولكنى فى حاجة إلى كوبة ماء أروى بها ظمأى وقدح آخر أغسل به رأسي ووجهى ، فالتفتت إلى (بثينة) الصغيرة وقالت ضعى ما فى يديك أمام السيد ، ودونك جرة الماء الصغيرة فأملئيها من الجدول واحمليها إليه يغسل أطرافه منها . ثم التفتت إليه فى وقار وقالت .

— يتفضل السيد بالجلوس، عسى أن تطيب نفسه لطعام البدو . وإلى أن أجهز لك فنجانا من الشاى تكون ابنتى قد حضرت بجرتها ، فأبعث بها خلف (فكرة) . وهى من فتياتنا أنصاف الحضر يؤنسك كلامها ، ويشجيك حديثها .

ياللدهشة . وفى كل مكان (فكرة) هى فى قرى شمال الطائف ، وهى فى حفلات الرعاة وراء العدوة القصوى من طريق الكر ، وهى كذلك فى هذه المروج المتصلة بالطائف القريبة منها . هى من بنات هذا الحى ، وصبايا تلك المنازل ، حيث يقيم الرعاة حفلات عرسهم ، ولا يبعد أن تكون من قريبات وصديقات كل البدو فى جميع وديان الحجاز وبواديه .

ثم ما هذا الأنس الموزع على كل طارق ؟ . أتوكيل هو من أبيها آدم على ذريته المشردين والهربين وقطاع الطرق ؟ أم شوعية لا حدود فيها ولا نظام ؟

ونال ذلك من نفسه وآلمه ، وحز فى فؤاده هذا الشيوع والانطلاق .

١٣

وعاد إليه هدوءه بعد لأى ، ورأى أن يستدرج الأم العجوز ما أمكنه الاستدراج عسى أن يلم بطرف مما يشغله عن (فكرة) واستجمع نفسه وناداها ، فبرزت إليه ملفوفة فى ثوبها الطويل مصكوكة الوجه فى حياء ، فقال :

— غمرنى لطفكم ولما تعرفوا بعد شيئا عنى ، فكيف بكم لو نزلكم ضيف معروف منكم ، نابه فى نواحيكم ؟؟

قالت : وقد استدارت على عقبها لتوليه جانبها المغطى

— إننا يستوى الضيف عندنا لا نسأله فى العادة من أين ؟ أو كيف جاء إلينا ؟ . حتى نقريه ونكرم وفادته ونتركه فى حل

من الحديث عن نفسه بما شاء وقت أن يشاء . أتريدنى على أن أسألك فيم وصلت إلينا وأنت طارق أرضنا عابر سبيلنا ؟ .
أنها دنيئة ما نزلت إليها وأنا بعد صبية ألعب فى هـذا الوادى فكيف بى وأنا فى مثل هذه السن .

— ولـكنكم تـكلون مؤانسة ضيوفـكم إلى إنسان أو إنسانة خص أو خصت بذلك مبالغة منكم فى التكريم أو عادة جرى عليها هذا الحى عندكم .

— إنها إلى التكريم أقرب وإن الفتاة (فكرة) وإن لم تكن من حينا ، ولـكنها حبيبة صادقة ،جوابة آفاق، لا ينقطع سيرها بين هذه الأصقاع ، ولا يفتر لسانها عن الحديث الكثير الجميل . وهى على كونها فتاة لم تبلغ مبالغ النساء يستوى عندها الرجل والمرأة ، لا تبالى بجيش من الرجال تقحم نفسها فيـه لتتحدث و تتحدث فقط . إنها تتحدث عن الله ، وعن الرسول كما تتحدث عن سير الأولين وتاريخ الآخرين . تتحدث فى جميع العلوم لا تستثنى شيئا منها، بكلام يسر رجالنا حينا، و يبغضهم

أحيانا كثيرة ، ولا يرضى قط نساءنا ، فهى أبدا ناصحة واعظة شديدة القول ، صارمة الحجة قوية البأس .

— ولكنك تذكرين أنها فتاة . والعرب لا تزكى فتاة تجوب الآفاق مقتحمة نفسها فى أوساط الرجال ، وأظنك ككل عربى من أمتك ، تنكرين عليها مثل هذا الطيش، وتحتسبينه ضدها منقصة لا يغطيها ثياب الوعظ .

— أبرأ إلى الله مما ظننت وما يظنه الكثير معك . إنى لا أنكر هذا التقحم فقط ، بل أمقته أشد المقت . ولكنها عالمة ياسيدى بكل أنواع الحلال والحرام ، مجنونة بعلمها إلى حد يهابها فيه أقوى الرجال، ولقد تعرض لها كثير من فتيان القرى فكانت تجابههم بأشد القول ، ولا تكتم ما يدور بينها وبينهم ترويه فى كل مناسبة ، وفى كل مجلس واضحا بأسمائهم . وسولت للبعض نفوسهم فى أن يطارحها الغزل الرخيص ، أو الألفاظ المبتذلة ، فكانت تحمل كل ما يدور بينهم وبينها على محمل واضح جرىء، وتنقله بأمانته إلى أول رجل تلقاه ، أو امرأة تقابلها بشىء من التهكم اللاذع ، والسخرية الفاضحة فكان

الفتيان والرجال على السواء يخشون جرأتها فى النقل، ويخافون تعريضها بكل ما ترى أو تسمع . لهذا لا تجدنى أضعف فى تزكيتها . ولا عبرة عندى بما يتمشدق به رجل رخيص، أو امرأة جاهلة.

— إذن فى البيداء من يتمشدق بها، ويلوى لسانه بسيرتها.

— لا يسلم الشرف الرفيع مهما علت ذروته من أذى الناس ومثل هذه الفتاة فى تهورها وخفتها وإقحامها نفسها فى كل ما يسأل عنه الرجال — حتى من شؤون سوآتهم — عرضة لأصحاب الفتك . وإنك لتخالها وأنت تسمعها تهرف فى كل ما يكون بين الرجل والمرأة مستورا بالعادة، لا تستثنى شيئا منه أمام سائل . تخالها وأنت تسمعها كذلك أنها إحدى الخليعات تتهتك فيما يلذ لها ويحلو . ولكنه جنون العلم فيما أعتقد . إذا كنتم تعرفون أن فى العلم جنونًا !!

١٤

وما انتهت العجوز عند هذا الحد من حدثيها ، حتى كان قد سرى عنه أكثر ما يجد من لوعة الشك ، وما داخله من حسنائه الجميلة .

ولم يلبث إلا قليلا حتى عاودته الوساوس من جديد فى شأنها ، وراح يحاسب خيالها على هذا الشيوع والانطلاق ، ويلصق به وبها شيئا من معانى الرخص والابتذال ، وود لو استطاع أن يقف بها عند حد من الحشمة والإتزان وأوغلت به وساوسه إلى نقطة بعيدة من الظن والاثم . فهى إنسانة كاذبة إلى جانب علمها ووعظها .

والعالم الواعظ إذا جربت عليه كذبة واحدة كانت مظنة الزيف وشبهة الخداع . . . وقد تركها يوم أسلمته الطريق إلى بيته تصعّد فى شمال الوادى إلى منازل الرعاة لحضور احتفال زفافهم ، فما بالها اليوم تبيت فى قيعان الجنوب . . . لا يبعد أنه خداع المزيفين من الكهان ، وزيف المخادعين من أصحاب

الوعظ والإرشاد ... لا يبعد أن تكون على وعد من حبيب مختار تسترق إليه الخطى، وتختلس الأوقات لزيارته ، وعاودته ذكرى كبريائها مرة أخرى ، وفلسفتها العريضة فى الحب ، فاستنكر على نفسه هذه الوساوس، وعاد يتامس لها شتى المعاذير والأسباب .

ولاحت منه التفاتة نحو الساقية ، فإذا «فكرة» تشرف عليه من وراء حائطها فى قوامها الغض ، وثوبها الفضفاض ، وعينيها المتوقدتين حماساً وذكاءاً ، فلم يملك أن وقف يحييها ويبسط شيئاً من الحشيش الجاف لجلوسها ، فانخرطت عليه فى شبه إعياء ، بعد أن حيته وعطفت على عشة العجوز تلقى إليها بالسلام .

وندت منه زفرة مكتومة ، فالتفتت إليه وقد أدركها شيء من القلق ، ورأت نفسها تسأله فى حنان ورفق :

— أتتألم ؟

— ... لا أتألم ... ولكنى أفكر .

— فيم تفكر .

— إنهم هنا يتهمونك بالجنون ... وقد تراءى لى أن ألتمس أدلتهم فى تصرفاتك ؟ .

— ألديك فكرة صحيحة عن حقيقة الجنون ؟

— أبداً فالمسألة لا أكثر من تواطؤ تواضع عليه الناس ، هناك تصرفات شذت على قواعد الحياة ، فدلَّت على خلط ، أو دخل فى القوى العاقلة ، عرفها الناس فيما بعد بالجنون .

— أتعنى أن الحياة سنت لنفسها قواعد ؟ أم أن شيئاً آخر غير الحياة سَنَّ لها ذلك ؟

— ليست الحياة عاقلة فتنظم لنفسها ، وإنما هم أَبناء الحياة ، — أو إن شئت صفوتها منهم — تواطأوا على تنظيم الحياة ضمن حدود لايخرج عليها إلا شاذ أو مدخول ، وبالاختصار مجنون .

— وأنت خطأ تزكي كل ما تواطأ عليه الناس ؟

— لم أقل هذا .

— أتقول إنه إذا تواطأ الناس على ما يسمونه بالجنون ، فأنت تخالفهم ؟ .

— ولم أقل هذا .

— أرجو تحديد ماتقول .

— ما تواطأ عليه الناس يحتمل الخطأ والصواب .

— وأنت شخصياً تحكم بما يحتمل الصواب والخطأ ؟

— لم أقل هذا ؟ .

— أرجو تحديد ماتقول .

— لا أريد أن أحدد شيئاً ، ولا أن أقول شيئاً .

— وتريد أن تسمع .

— سأسمع ... وذلك شأنى كلما جلست إليك .

— إذا وضع (الحكيم العاقل) نواة قاعدة فى الحياة ، فالمفروض أنه يستوحى حكمته ؟ فما هى حكمته هذه ؟ إنها قواه العقلية متأثرة بمجموعة كبيرة من عوامل محيطة ، فعباد البقر ، والبوذيون ، وهمج أفريقيا فيهم حكماء يشرعون لأممهم قواعد فى الحياة يستوحون فيها حكمتهم وقواهم العقلية المتأثرة بالكثير من سخافات محيطهم ... ومع هذا فهى قواعد ... وهى سنن فى الحياة ... وهى نظم لها رعايتها ، فإذا كنت فيهم فهل من

رأيك الخروج عليهم فيها ، أو متابعتهم عليها .

إن كنت الأول فأنت مارق خارج مجنون ، وإن كنت الثانى فأنت مدسوس على نفسك ، مغبون لغيرك ... فى الهند جماعة يذبحون البقرة ، وآخرون يقفون مذهولين يسأل بعضهم بعضاً : ما يمنع الجبال أن تميد ، والأرض أن تبيد ، بهذا النفر الطاغى يطعن آلهتهم ، ويطعمها أهله وأولاده ! .

هذان خصمان عاشا فى بلد واحد ، ونهلا العلم والجهل من معين واحد ، وأترع كل جانب منهما بالحكماء المشرّعين والعقلاء فما منع الحكمة أن تجمعهما والعقل أن يستصفى الخلاف بينهما لا شئ سوى أن العاقل لا يستوحى حكمته خالصة ، ولا يضع قاعدته فى الحياة إلا متأثرة بالعوامل الفعالة فى محيطه ، ولو لم يكن هذا لكان أبناء الحياة على غير هذا النحو : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَة » .

إننى لا أزكى نفسى فأدعى أنى إذا كنت مجنونة فلأنى أحدهما ... لا أزكيها لأنى إذا كنت أعقل بعض الأشياء ، وأجدف على بعض القواعد ، فإنى لا أزال رغم ذلك متأثرة

بأكثر من عوامل أحاطت تربيتى ونشأتى ، وها أنت ذا ترانى مثلك ! إلى حد ما عبدة لكثير مما أحاط بِي وينكره عقلى . أريد أن أخلص من كل هذا إلى أن قواعدنا فى الحياة ليست صواباً كلها ، لأن واضعى نواتها كانوا لا يستوحون حكمتهم فيها مجردة من أدران محيطهم ، وأن الخروج عليها ليس خطأ كله ولا جنوناً كله ... فإذا رأيتنى فى نظر غيرك مجنونة ، فكن أثبت من أن تجارى التيار ، واخلص مرة واحدة من مؤثراتك المحيطة ، لتستطيع أن ترانى على حقيقتى بعينك المجردة ، وتحكم فى شأنى بغير عقلك المشوب .

١٥

كانت الشمس قد أوفت على الاستواء ، ترسل أشعتها من خلال الغمائم المتكاثفة فاترة هزيلة ؛ وكانت رءوس الجبال على جنبات الوادى تبدو حالكة السواد ، طاعنة فى الفضاء بقرونها فى خيلاء وزهو .

وكنت ترى فى زاوية من الأفق من ناحية الشرق بقعاً

أرجوانية تلمع فى صفحة السماء كأنها بحيرات صغيرة تصطفق فيها أمواج من الدم .

وكان الدخان الساطع من المنازل الريفيـة المتناثرة فوق النجود الصغيرة المجللة بأشجار التوت والأثل ، يلتوى قبل أن يسامت رؤوس الجبال ، وتنعقد حواشيه فى غمائم رقيقة شفافة ، وكانت النغارى تثب وتتنقل مغردة فى ثناياالوادى بين شطئان وخلجان تتعرج ، وتندغم ، وتنبسط ، تـكتنفهاعرائش العنب وأشجار الرمان والخوخ ، بينما تنحدر أمواج من السيل فى أخاديد كأنهاالشلالات، ثم تعرج وتلتوى بين الغياض والبساتين والمروج المخضلة .

وكان سالم ينصت فى إطراقةالمأخوذ بروعةحديثها،ويقدم لها كوباً من اللبن الطازج الذى أعدَّته لهما العجوز

قال وقد اعتدل فى جلسته :

— إنك أوفيت البحث ولم تتركى فيه منفذاً لمعترض .

— أبداً فالبحث فى مكانه لم أستوف إلا جانبا فيه ، وثمت جانب آخر أحق من سابقه بالتفنيد والشرح ... إن ما أسلفته

لك كان مصبوباً جميعه على قواعد سنها للحياة عقلاء كانت كل أخطائهم لاتتجاوز أنهم متأثرون بعوامل محيطهم، ولكن ما رأيك فى طغمة من أصحاب الرأى الفطير والفكرة الفاشلة تناولوا الحياة بحكم منازلهم فيها من الجاه أو السلطة أو الثراء. فأوسعوها سنناً وقواعد، وخلقوا لنا فيها أرتالاً من النظم والفروض، تطغى آلاف المرات على ما وضعت الحكمة وسن العقل ... بكل هذه الأرتال انتظمت الحياة، وأصبحت بمرور الحقوب والأجيال قواعد لها حكمها، ولها قداستها وحرمتها، رغم مافيها من آراء خطيرة... أصبحت بحكم انتظامها فى الحياة حقبا طويلة، وأجيالاً عدة، نظما فى الحياة وقواعد ثابتة لها، وأصبح الخروج عليها كفراً ومروقا وجنونا.

— وما شأن الطغام من هذا النوع بالتشريع يقتحمونه؟

— إنه شأن الناس قبل أن يكون شأن هذه الطغمة منهم فالناس فى كل زمان جبلوا على تقدير خاصتهم من أصحاب الجاه والحيلة لضعفهم عند أصحاب القوة، فالتمسوا لذلك شتى وسائل الإغواء والتزلف، فتركوا مثل هذه المخلوقات تتسنى لمجرد

سموّها ، وعلو كعبها ، عن مستوى الأرض من أنها محاطة بالزيف والكذب وجعلوها تنسى مواهبها ، وتلغى عقولها ، وتمضى فى شططها مطلقة العنان ، مقدسة فى كل ما ترى ، عظيمة فى كل ما تشير ، نزيهة فى كل ما تنطق . وأغراها التقديس والتعظيم والتنزيه ، فأمعنت فى الغلو بنفسها ، واستغنت عن وظيفة العقل فيها فشلت حركته ، وعطلت نشاطه ، وانساقت وراء الهوى تقتحم صفوف الفلاسفة ، وتضرب فى بيداء المتكلمين تلفظ الكلمة ليرتفع لها ألف صوت ، وتقول الرأى فتعنو لها ألوف الجباه كلها تأمين وإجلال وتعظيم .

وتواتى الحيـاة بعض من تواتيه ، وتقلب ظهر المجن لمن تقلبه منهم . فيعفى التاريخ ماأعفته الحياة ، ويواتى من واتته فيرهف أقلامه ويشرع صحائفه مفعمة بالكذب ، طافحة بالبهتان ويأتى المحررون على أعقابهم ليختاروا لنا من آدابهم (جواهر) كاذبة ؛ ومن عبثهم فلسفة فاشلة ، ومن آرائهم الفطيرة قواعد ثابتة ، لاتلبث أن تنتظمها الحياة ، وتحتضنها الأجيال ، فتمسح عليها

من قداستها ، ويتوراثها الاحفاد كما يتوارثون كل مقدس لا يخرج عليه إلا مارق أو مجنون ! !

— لشد ما تتجنين على التاريخ .

— فى سبيل الشيطان ألوف المجلدات مما زور التاريخ وزيف ، بجانب القليل الذى كان أميناً فى نقله ، نزيها فى سرده . تُرى ماذا كان يفعل التاريخ (بهتْلر) لو أن الحياة شايعته يوماً واحداً على أبواب العلمين ؟ وتركت جيوشه تمضى فى فتوحها إلى نهاية الحرب ؟ — أتظن صفحة واحدة مما تخرجه مطابع أوربا كانت تكون خالية من ذكره ، والثناء عليه بشتى النعوت والألقاب ؟ ؟

مع هذا فليس هو اليوم أكثر من مجموعة مثالب ، سيظل التاريخ يتلكأ فى ترديدها، حتى يغمرها النسيان فيطويها كما تطوى اللجة أقذار الشاطىء ! !

— هو ذاك . ولست على هذا القياس بمجنونة ولكن !

— ولكن . . . ولكن تريد أن لا يتشعب الحديث

وأن لا يخرج عن غرضك . وعندى صبابة فى البحث لم أتلمظها بعد. رأيت العظمة والتألية فى تركيا فى عهد الخلافة يأخذ أشكالاً ما عرفها قطر عربى نشأ فى مثل هذا القفر النائى . يكفى لتعطيل ملكة عقلك كإنسان أن تنحدر من بيت مجيد . يحتضنك الدلال وأنت فى مهدك طفل غرير ، فلا تبدُ منك صرخة حتى تجف الأفئدة ، وتهلع القلوب ، وتجثو حولك الرؤوس عانية خاشعة . وتدرج بك الأيام ، فتدلج إلى حديقة المنزل تشارك حاشيتك من صغار الفلاحين وخدم البيت لعبهم فيشعرونك أنهم سوائم أعدت لإزجاء فراغك على ظهورهم إن شئت ، أو أعناقهم ، فيدخل فى روعك أنهم من غير طينتك وأنك من غير هذا النوع .

وتلاحقك الأيام فتلحقها وأنت على جلد نمر فى عربتك الجديدة، آخذاً طريقك إلى ما سماه الناس مدرسة ، وسميتها أنت مملكة جديدة ، بعد مملكة البيت ، تعنو لمجدك ، وتحنو على رغباتك .

وسط هذا الذل ، وبين هذه الغفلة والانحلال التربوى .

تقضى سنى دراستك ، فتمضى المدرســـــة بنظمها وتعليمها وما توجهه وتغرسه فى ناشئتها . تمضى كلها فى واد ؛ وتمضى أنت ودلّك وانحلالك فى واد آخر غير واديها ، وتتخرج فيها وأنت أكثر غفلة مما دخلت ، وأشد انحلالا فى تربيتك وأخلاقك وجهازك العصبي مما كنت . تخرج منهـا لتتسلم مقاليد وجاهتك ، وصكوك أملاك أبائك ، وتتقبل تهانى المزيفين ، وكذب المخادعين من حاشيتك وأتباعك وعباد جاهك وأموالك ، فلا تدرى أصفقتك خاسرة بما تدفعه من عقلك ومالك ثمنا لما يحوط من خداع ؟ أم رابحه بما أطلقت من عنان لهواك وطيشك ؟ ولـكن الذى أدريه أنا ويدريه كل عاقل فى تركيا يومها فى غـير هـذه الطبقة . أن الخسارة خسارة البلاد بما فقدته من حصافة أبنائها ، ورشدهم وأموالهم ، وأن الريح ريح الأجنبي الواقف عن كثب يرقب الأمور ، ليضع آخر مسمار فى نعش الأمة والدولة . . ولقد كان .

كان ذلك يا صاحبي . فقد جاء يوم كانت فيه رؤوس الدولة من هذه الأعصاب المحلولة . عنت البلاد لها ووضعت مقدراتها بين يديها ، فعمدت إلى شهواتها تشيعها من معين ظنته لا ينضب ، وإلى رعونتها تدق بها . كل عنق مفكر ، وإلى طيشها توزعه أوامر (همايونية) على الشعب لا ترعى فيها عدلاً ولا مساواة وتقرب به كل ختال كفور .

وحالت الخديعة ، وحال الرياء دون استجلاء الموقف على حقيقته قبل فوات الأوان. اضطلع بذلك نفر من عبيد الأموال أخذوا على عاتقهم تلبيس الباطل وتزيينه وإبرازه حقاً صراحا ، وصرت الأقلام تؤيد النفاق ، وتابعها والأدباء كلهم يؤيد المصلحة الخاصة ويشايع المال . وجاء التاريخ فسن سننهم وترسم خطواتهم ، فالتبس الأمر على أصحاب الأمر وغدوا على شهواتهم يصبحون ، وفى رعونتهم وطيشهم يعمهون .

وكتب حر تركى يوماً فى صحيفة نمسوية ينعى هذه الغفلة ، ويجدف على ترفيه أصحابها ويسأل : « أليس الأخلق بجبيسى

قصورهم العالية أن يتركوا الأقلام غير المأجورة أن تصر بما تشاء، إلى جانب المأجورة توسيعا للمجال وتنفيسا للصدور ؟؟ إنهم إن فعلوا ذلك أعانوا أنفسهم فى محابسهم وهيأوا لها جواً طلقا يتنسمون فيه ما طاب لرئاتهم أو صدورهم أن تتنسم، وتكشفت أجواء قد يطيب لهم جدتها وطراءتها وليس ذلك بضارهم شيئا إلا بإذن الله » .

فآل أمره إلى شبه محاكم التفتيش فحكمت عليهم قبل أن تحكم لهم . لأنها أدانته فأسكتته نهائيا ، وأرضتهم فأفتنتهم فى دينهم ودنياهم .

ولم يربح فى الحالين إلا عدوٌّ يترصد الباسفور . مهيئا دواليبه لتطحن البلاد فى أول فرصة مناسبة من الحدود إلى الحدود . وقد فعل .

— وتطحنيننى أنت كأننى عدو قاهر ، ولم أكن طائشا فى حياتى أو أرعن .

— ذلك لأنى مجنونه ، ولأنك تبحث أدلة جنونى فى

تصرفاتى . فأنت تتعرض لما يتعرض له كل عاقل وقع فى شراك مجنون .

١٦

قال وقد سره أن ينحو الحديث بينهما هـــذا النحو الرمزى :

— يعجبنى أنك تتغلغلين فى نفسى ، كما يعجبنى هـذا التلميح بالوقوع فى الأشراك .

— ولـكنه لا يعجبنى . أن أنشر وتطوى ، وأن أستقيم وتلوى .

— وهل يعجبك أن أكون مكشوفا ؟ وأن لا أستحى .

— هو خير عندى من الالتواء والغمز .

— ولـكن ... ولـكنى لا أجرأ .

— أأنت تخافنى ؟

— أخافك . هذا الإشعاع الذى تتألق به أهدابك الوطف فوق أجفانك الفاترة ، يترك أثره السحرى فى نفسى ، وليته كان

سحراً ممَّا تعـود النـاس فى بيوت الشعوذة والباطل . . :
إذن لصمدت له بما أوتيت من قوة الثبات ، وصدق العزيمـة ،
ولكنه سحر من نوع آخر ينقل النفس من عالم المادة والحقيقة
إلى عالم تفقد فيه النفس مواهبها من القوة واليقين . . . فأنا إذا
كنت أشخص أمامك بما تظنينه حقيقتى المـادية ، فليس فيما
تظنين أكثر من وهم..لأن حقيقتي تبخرت فى أول سيال شع
من أجفانك الدعج فى أول يوم قابلتِنى .

قال هذا ثم انطرح على نفسه كمن يستريح من هم ثقيل آده
زمنا طويلا فرفه عن نفسه بإلقائه عنه . . فما زادت على أن رنت
إليه بلحظ ساهم ، ونظرات حائرة . . ثم ارتفقت جذع الأثلة
ومالت بعنقها على كتفها فبانت سحنتها أشبه ما تكون بسحنة
المريض . . فى وجه ضامر كأنما دهمه داهم مفاجئ فانكفأ لونه ،
وانطبعت آثار الجهامة على جبينها العالى ، والذبول على زوايا
شفتيها الدقيقتين ، وخدها الأسجح الجميل ، ثم حجبت وجهها
بطرف ردائها وندت منها آهة طويلة عميقة . ولم تجب .

١٧

كانت الشمس قد أوفت على الاستواء ترسل أشعتها من خلال الغمائم المتكاثفة فاترة هزيلة ، وكانت رؤوس الجبال على جنبات الوادى تبدو حالكة السواد شامخة فى زهو وخيلاء إلى ذروة عالية فى الفضاء ، وكنت ترى فى زاوية الأفق من ناحية الشرق بقعاً أرجوانية تلمع فى صفحة السماء كأنها بحيرات صغيرة تصطفق فيها أمواج من الدم ، وكان الدخان الساطع من منازل القرويين المتناثرة فوق النجود الصغيرة المجللة بأشجار التوت والأثل . يلتوى قبل أن يسامت رؤوس الجبال فتنعقد حواشيه فى غمائم رقيقة شفافة ، وكانت النغارى تثب من ثنايا مجارى السيل وتتنقل بين أشجار الرمان والتين صادحة مغردة بينما تتحدر أمواج من السيل فى بطن الوادى كأنها الشلالات ، ثم تعرج وتلتوى فى مدارج الحقول وجداولها .

وكانا على مرتفع من طريق السابلة تحجبهما شجرة الأثل الكبيرة عن عيون المارة من رعاة الغنم والفلاحين .

كانت (فكرة) مرتفقة جذع الأثلة وجديلة من شعرها تغطى جبهتها ثم تمضى فى هون حتى تلامس ثغرها ، تستقر أطرافها بين ثنايا كأنها الصدف اللامع ، وكان فرعا من الأثل يصارع شعاعاً خافتا على وجهها الضامر وملامحها السقيمة. وكان هو على خطوات منها واجف القلب مبلبل الخاطر لا يدرى أية نزوة من نزوات القلب جمحت به إلى هذا العبث ، وأى مرض من أمراض النفس قاده إلى هذا النزق .

استبدت به الهواجس وانثالت عليه الأفكار سوداء قاتمة . ما باله يعنى نفسه بهذه الشواغل المبتسرة ؟ ؟ وما باله يغزو هناءته وخلو باله بهـــــذه الهموم التى نفض يده منها ، وسئمتها نفسه . بدأ يشعر من جديد أنه على شفاهاوية تجذبه إلى قاعها ، قوة ليس فى قدرته مقاومتها ، وإنه يرسب فى بحيرة من بحيرات الدم التى شهدها تلمع فى صفحة السماء وتصطفق أمواجها . . إلا أنها بحيرة ليس لها ساحل يتركه ، أو مرفأ ينتهى إليه .

جالت هذه الأفكار فى رأسه ، وشعر أن الجبال الشماء

والوادى وقطعان الماشية تشاركه هـذا الشعور ، وتشاطره الأسى فى سكون وصمت رهيبين .

ونظر إلى فتاته فإذا إشراقة من الخجل، تطغى على وجهها، ورعِدة خفيفة تمشى فى أوصالها ، ورآها تجمع رجليها تحت دثارها ، وتعتدل فى جلستها تواجهه ثم تشخص إليـه بعين لا تطرف وتعود إلى صمتها .

ما حاجته الآن إلى كلامها وفى انحلال هذه المسكينة ، وانكفاء لونها وما يبدو فى ملامحها من آثار الذبول ما يدل جميعـه على مبلغ ما تعانيـه من آلام نفسية كان هو وحده سببها ؟ ؟

ما حاجته إلى الكلام وهذه آهاتها وما يعلو ويهبط من أنفاسها يترجم بأصدق بيان ، ويشرح بأوضح ما يمكن الشرح عن الأفكار القوية التى تضغط عليهـا ، وتعذب وجدانها !

طال بينهما الصمت وعيناهما لا تطرفان عن الشخوص إلى بعضهما ، ثم صعدت من أنفاسها زفرة عميقة توردت لها

وجنتاها ، وقالت فى صوت متهدج اعرف من أمرك وحالك أكثر مما أردت أن تعرفنى به إن صدقا أو كذبا ، كما أنك لا تعرف منى إلا أننى فتاة فى ميعة صباها فتنتك فيها طبيعة الارتجال المتأصلة فى كثير من الرجال. فأنا إن فتنتك اليوم فذلك لأن فى كثير من الرجال طبيعة الاستعداد للفتنة بأول ما يصادفهم فى الفتاة من صباها ، أو رواها ، أو مسحة من الجمال قد تكون خداعة فيها .

وأنا من طبيعتى أكره الارتجال فى كل شىء . فإذا رأيتك اليوم ترتجل الهيام لنفسك ارتجالا ، وتندفع معه اندفاع من تغريه السطحيات فلا آمن أن يتغير رأيى فى رجولتك ونضوجك .

أية هوة عميقة تدفع بنفسك إليها ، وتريدنى على أن أندفع معك فيها . ألا إننى أدرى أننى إن طاوعتك فستجد نفسك بعد لأى عند سراب خداع .. فى قيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا .

ترفق بنفسك ولا تضف على فتاتك هذه المغريات البراقة فإنك لا تدرى مقدار ألمك يوم ينكشف ما أضفيت من مغريات عن حقيقة مرة لا يستسيغها مزاجك ، ولا يستمرئها مذاقك !

أنا يا أخى فتاة ليس لها عقل من تعرف من الرجال والنساء !. أعيش فى أفكارى وميولى الخاصة فى عزلة تامة من الناس ، هانئة بهذه العزلة ، سعيدة بهذه الأفكار والميول . ينعتوننى بالشذوذ مرة ، والجنون أخرى ، فأتقبل نعوتهم بنفس راضية لأن السعادة والرضا يتركزان فى ذهنك وتؤمن بهما أحاسيسك قبل أن تتولاهما التعاريف وتحددهما مصطلحات الناس .

قالت هـــذا ثم شخصت ببصرها إليه فى قلق واضح تستطلع ملامحه وما ترك حديثها من أثر . ثم نكست رأسها ، وأطرقت ملياً . ثم عادت فرفعته مشيرة إلى سالم بالمسير . فقام يتبعها بعد أن ألقى على العجوز تحية الوداع وشكرها فى كلمات مضطربة ! !

١٨

مضيا فى طريق معبد ينحدر إلى وهدة مطمئنة على شاطئ الوادى ثم صعدا ربوة تجللها أشجار الطلح اليابسة أشرفا من ذروتها على واد ضيق يتلوى فى أحشاء السهل المخضل ، ثم يلتوى فتحتضنه التلال ، ثم يندغم فى مهابط وخلجان بين الجبال تعرش على ضفافها الكروم ، وتتشابك أدواح الخرنوب والكافور ، ثم يستقيم ويستوى حتى ينمحى فى مدى البصر من الأفق البعيد .

وانحدر بهم الطريق من ذروة الربوة إلى صخرة عريضة نائية قامت فى زاوية من جانبها الغربى دار مهدمة تدل آثار بنائها القوى على عظمة شبابها ، وأنها أحد منازل الأمراء من القبائل التى كانت الأيام تدين لهم فى هذه الأصقاع بالعز والمجد . بينما كان ظل المساء يسترق خطاه فى هون وسعة ، وينشر دثاره على سلسلة الهضاب ورؤوس الأشجار ، فتبدو الوهاد والصخور وحواشى الوادى ساكنة جامدة كأنها تشاركهم

الأسى والجمود بعد الطلاقة والإمتاع .

وأخذا الطريق إلى الدار المهدمة فألفيا لها بابا يفتح على ما يشبه الصالة على جوانبها غرف لم يبق الزمان من سقوفها وحيطانها إلا على مايدل عليها، أما الصالة فظل سقفها وحيطانها ونافذتان فيها محتفظة بقوتها كأنها أرادت أن تكون أمنا لكل عابر ساقه الطريق المقفر أو البرد القارص إليها .

ومضت (فكرة) تجوس خلال الغرفة وتتفقد زواياها وأركانها كما لو كانت لها بها صلة سابقة ثم التفتت إليه فى صوت أذواه الأسى وقالت .

— هنا يحسن مبيتنا إذا وفقنا إلى عشاء وقهوة !

سكت ولم يبدر منه حرف ، وتركها تسمع نفسها . فدارت عل عقبها ثم اتجهت إلى النافذة وصاحت . يا سليم . . ولم يطل نداؤها كثيرا حتى دخل عليها أسود عريض المناكب يلبى النداء فى وقار وفرح فقالت :

— امض إلى (ابن الشيخ) فأخبره أن فكرة فى القصر الليلة ، وأنها تدعوك إلى العشاء والقهوة . فانحنى الأسود طائعا

وانفتل يعدو هابطاً بين الصخور كمن يستخفه فرح طارئ .

اشتد العجب بسالم ، وهاله أن تدعو (ابن الشيخ) إلى العشاء والقهوة ؛ فى وقت لا تملك فيه كسرة تتبلغها . . ولاحت منها التفاتة إلى وجهه المكفهر ، فقرأت فى ملامحه ما دار فى نفسه ، وعلمت أنه لا يريد أن يبادرها فى شىء اشمئزازاً من جفوتها ، فعطفت فى ود ظاهر ، وحنان مرموق إلى ناحيته وهى تقول :

— إن (فكرة) أختك لا تسىء التصرف ، فتدعو إلى عشاء دون أن يكون لها مائدة . . . إن مائدتى فى بيت (ابن الشيخ) تطالعنى بما يلذ وأشتهى ، فاطمئن إلى ، ولا يساورك شىء مما يسوؤك . . وسبقته الكلمات رغم صموده دونها ، وخلوده إلى الصمت فانفرجت شفتاه على حرد وقال :

— أتعنين أننا سوائم ، نفرض نفوسنا على كل مرج معشب !

— ولا هذا . . . فهى مائدتى . وعندما أقول مائدتى ، أعنى ذلك بكل حروفه . فإن لى فى هذا الوادى نصف بستان

من أخصب ما يزرع الوادى ، ولى قطيع من الماشية استثمرته من نصيبى فى غلة البستان ، وليس (ابن الشيخ) إلا قائم على مالى بتوكيل خاص منى ، يغله ويستثمره ، لقاء جعل خاص .. فعندما أدعوه إلى العشاء ، أدعوه على خروف حنيذ ، ليس له فيه إلا ما يبذله بناته فى طهيه وإعداده ، وستكون الليلة إلى جانبه فى ضيافتى ؛ موفور الكرامة ، عزيز الجانب بعد الذى ظننت من جفوتى قبل الأصيل !

وإذا شاقك استئناف الحديث عن السحر الذى فقدت فيه ثباتك ، وفقدت صدق عزيمتك ، فسأستأنفه معك بمايروقك ، على أن لا يخاطبنى فيك إلا عقلك الناضج ، ومنطقك السليم . أما عواطفك ، وأما شاعريتك ، وأما مواطن الإحساس الرقيق منك ، فدعها الليلة فى نجوة منا تحوم ولا ترود ، وتشهد ولا يقترع لها بصوت .

إنك يا صاحبى عظيم إذا فهمت ، كبير إذا نقدت . . ولكنك سطحى إذا رغبت ، محلول إذا هويت ، بودى لو أنمى إليك حواشيك الرقيقة ، وإحساسك المرهف . .

ولكنكم معاشر الظرفاء ، تجعلون لها المقام الأول فى فضائل الرجل ، وأسميها أنا مثالب لا يستوى معها نضوج الرجل ، ولا يستقيم له رأى أو عزيمة ، ولا يرجع فيه عقل .

أتخافنى يا صاحبى ؟ تخاف أهدابى الوطف ، وتسحرك جفونى الفاترة ؟ . وتتبخر حقيقتك فى أول سيال شع من أجفانى الدعج ؟ ؟

ماذا تركت ؟ . . ماذا تركت لذات الخلخال والقرط ؟

إنى أفهم أن تتفتح نفسك لمرأى خلاب ، وجمال مشرق .. أفهم أن تطرب ، وتتلذذ ، ويقع فى نفسك السرور والغبطة ؛ لجمال طالعتك فيه ناحية مشرقة ، وفتنة أخاذة .

أما أنك تتبخر وتعود هلاماً أتلمس حقيقتك فلاأجدها ، وكينونتك كرجل محصور فافقدها ، فذلك شىء لا أعرفه . . شىء يضيع فيه إدراكى ، ويقصر عنه فهمى ! !

أريد يا صاحبى أن تكون لأختك مفخرة تطاول بك إقبال الرجال ، وتستمديك على مدلهمات الأمور . . لا هلاما يتبخر مع أول إشعاع وغاز يفنى فى أول سيال !

أريد أن أرى فيك الأخ الذى انتظرته طويلا ، وترقبته كثيراً ، وحامت به فى ليالى الشتاء المقرورة يقرأ لى من شعر أميـة ابن أبى الصلت ، وأقرأ له من لزوميات المعرى . . . وتصورته فى ليالى الصيف يرافقنى إلى مراتع الجمال نتنسم طراءة الوادى الأريج تتكسر أضواء القمر على حواشـيه . . نقف على شطآن الغدير فنلتقط ماترك القرويون من ثمار الخوخ على جوانبهـا نقضمه ، و نتقاذف نواياه ، أو نرجم به الضفادع الآمنة فى قاع الغدير فنثير نقيقها ، و نقلق سكينتها . . أو نجلس تحت شجرة البسيانى نتأمل أوراقها الزرقاء تلمع كأنها قطع قدت من أديم السماء وقت صفائها فنمت فى أديم الأرض ، وأرسلت غصونها وأوراقهـا لامعة زرقاء ، ويمعن تأملنا حتى يسع هذا السهل المغشى بالفواكه والأثمار قامت على سوقها نتيجة تفاعل بين الأرض والماء أغلق سره على الـكيماويين ، ودقت حقيقته على المفـكرين ، لهـذا كنت أرقبك وأنتظرك لا لتتغزل فى فتنتى ، بل لتشاركنى متعـة التأمل الواسع . . فهل لنفسك مبتغى وراء هـذا ؟ ؟ أنت تريدنى على أن أكون (حليلة) لك

وأنا أستطيع أن لا أقصيك عما تريدنى عليه ما دامت سنة الله بينى وبينك . .

ولكنى أحس أنى سأكون مطالبة لك بروحى ونفسى قبل أن أكون لك بجسمى ! .. وإذا عرفت أنى ربيت على نحو خاص فى أحضان هذه الوديان التى لاحد لنهايتها ، وأنى أشربت حب الحرية والفكر الطليق الذى لا تحده قيود الغلاة ولا يقف دونه تقليد المقلدين ، عرفت أى خيال تبنى عليه مآتيك ، ، وأية هاوية ستشرف بى عليها .

أنا فتاة قرأت ما قال الله ، وقال الرسول . . . وعرفت الدين فى سماحته وبساطته التى عرفها فيه الرعيل الأول من رجال الإسلام ، ونشأت لا تعوقنى سخافة ، ولا يثبطنى تقليد عن النظرة الصحيحة . . . ففى أى مجتمع ستنظمنى ؟ . — إنك ستمسى بى أضحوكة غدك ، وأصبح وقد فقدت بك أقانيمى الثلاث ، نفسى وعقلى وجسدى . . . أنها صفقة خاسرة للشريكين أرى أن تقصيها عنا ، وأن نبقى أخوين ما طاب لنا الإخاء ، وحفظ علينا ديننا ومروءتنا .

أرى أن الإخاء أبقى لنا من نشوة زائلة بزوال الفتنـة ، وأبقى بترفعه من لذة الحس ، وأدعى للسعادة والخلود .

١٩

قالت هـذا فتركته شارد اللب ، سادراً لعقل تلج به أمواج من الهموم تعقبها أمواج .. نسى نفسه فيها كما نسى وجود صاحبته معه وانثنى يذرع الصالة ذهابا وجيئة لا يعرف من أين يبـدأ ولا أين ينتهى .. كان يصافح النافذة فلا يرى منها إلا ما يراه الأعمى ، وتصطـدم بالباب والحائط فلا تحس قدماه بالاصطدام كأنه أحد أشباح الليل لا يعى ولا يشعر أن له وجوداً أو كينونة ..

وقادته قدماه إلى عرصـة الدار وكانت مشرفة على السهـل المنبسط وراء الأودية والسهول تـكتنفه التـلال والهضاب وأشجار السـدر المثقلة بالنبق ... وكان النسيم يهب بليلا رخياً ، وصقيع المساء يغمر الأفق بطبقة رقيقة من الهواء الندى ، وفوح الزهر يعطر الجو بأريجه ، فانتعشت

نفسه ، وأثلج صدره ، ولطفت برودة الجو حرارته ، فاجتاز العرصة إلى درب منحدر فى الربوة يصل ما بينها وبين حاشية الوادى فى طريق مجلل بالأشجار الباسقة ، متشابكة غصونها ، متدلية أفنانها ، انتهى منه إلى غدير صغير ، تناثرت منه على حوافيه بعض القرويات ، يملأن القرب ، أو يغسلن بعض الأوانى ، فانتبذ ناحية منهن بعيدة ، وانخرط على نفسه فوق حجر ناتئ من الغدير ، وأدلى ساقيه يغمرهما بالماء ، كأنه يطفى بها لهيباً ، يشعر وقدته فى أعماق نفسه !.

وأحس بخطوات رشيقة فوق الحصى على حافة الغدير ، فالتفت ليرى « فكرة » تجمع ذيل ثوبها لتقترب إليه ، فما ملك أن قام فى أدب يحييها ، ويوسع لها من مقامه فوق الحجر الناتئ ، فقالت :

— ليس هنا بالمكان الذى يسعنا ، فإذا رأيت أن تتبعنى فإن فى القصر منتجعاً دافئاً ، يقينا طراءة الليل ، وندوة الغدير ، وفيه متسع للتعقيب على ما فرط من حديثنا تعقيباً يجلو سوء الفهم ويلطف من شدة الوطأة .

قالت هذا ثم دارت على عقبها ، متجهة إلى الطريق ،
ورأى نفسه يتبعها ويجتازان معاً الطريق الذى سلكه حتى
انتهيا إلى الربوة ، فأشرفا على نور قوى يشع به القصر ، وأصوات
كثيرة تتجاوب فى أنحاء الصالة ، فعلم أن (ابن الشيخ) قد
وصل ، وأن القوم فى انتظارهما .

ومالت على أذنه قبل أن يبلغا باب القصر وقالت تُسِرُّ إليه
فى صوت خافت ، تتعثر ألفاظه : « لو كنت حادة الأعصاب ،
أستجيب للعاطفة أول ما تبدو لأعلنت على باب الدار قبل
ولوجها خطوبتى منك وأشهدت (ابن الشيخ) وقومه وتركتهم
الليلة يحتفون بنا ، ولكنى أحب الأمور تمشى رتيبة فى مدارجها
من الروية والفكر ، ولا أمقت شيئاً مقتى للتسرع والهوج ،
وأخذ الأمور على عِلَّاتها » .

قالت هذا ثم خطت إلى الباب دون أن تترك له فرصة
الكلام ، وبادر القوم إلى تحيتها فكانت تصافحهم فى حرارة
وتحييهم فى طلاقة ... وعمدت إلى صديقها فعرفتهم به ،
وأحلته من المكان فى الصدارة ، ثم انثنت إلى زاوية من المجلس

فأخذت مقعدها فى إيناس وعزّ ، كأنها سليلة أحد الملوك فى الصحراء ، أو سيدة عظيمة من سادة القبائل فى العهود الأولى.

٢٠

وهاله وشد فى ألمه أن لا تجد ما تفتح به حديثها إلا شأنها معه فقد ابتدرت بعد التعريف به تقص عليهم قصة لقائها به ، وما كان من شأنه فى طلب الطعام ، وشأنها فى إضرام النار له فى الكهف ، وما شأنهما معاً بجوار عشة العجوز بأسلوب طبيعي غير متكلف لم تتجاوز فيه معنى من المعانى التى طرقاها ولم تترك ناحية من النواحى التى يتحاشى من فى سنها وجمالها من ذكراها ... إلى أن جاءت على حديث السحر الذى رآه يتألق فى أجفانها الدعج ، وما كان من تأثيره فى تبخر حقيقته مع أول سيال شع منه ... فى لغة لاتبدو فيها معانى الزهو والخيلاء بقدر ما تبدو فيها السطحية ونقاء السريرة ، وحب الصراحة والوضوح ... وانتهت من حديثها بما كان من رأيها فى طبيعة الارتجال المتأصلة فى الرجل ، وما عقبت عليه من

الحديث عن ميولها الخاصة ، وأفكارها الشاذة ، وحبها العزلة .

كان القوم ينصتون إلى حديثها وبسمة خفيفة يشيع ظلها على وجوههم . وكان (ابن الشيخ) يبدو فى إنصاته ومتابعته الحديث شديد العناية بروايتها كما كان صاحبنا فى إطراقه ووجومه وانطوائه على نفسه بين الجلوس يعبر عن مدى الخجل الذى يساوره ، والأزمة النفسية الشديدة التى يعانيها . وعند ما أوفت إلى ما أوفى إليه أمرهما وهما يتركان الغدير فى طريقهما إلى البيت تركت عيون القوم تصوب أنظارها إلى ضيفهم الغريب ، ثم انفتلت تعدو إلى خارج الغرفة وتصيح فى الخدم تستعجلهم الطعام .

وتحرك (ابن الشيخ) فى مقعده . وقال وهو يخلل لحيته ويجعلها إلى أسفل وجهه :

— مرحبا بالضيف حل وادينا ونزل بنا ، ونسأله العذر فيما فرط من أختنا فى حقه . وأختنا كما رأيت لا بالعاقلة فنحجزها فى غرار المخدرات ، ولا بالمجنونة فنولى عنها ! !

وتنفست كربة صاحبنا ، وانجابت سحابة داكنة كانت

تغشى محيـاه ، وتفتحت نفسه للحديث فقال :

— كنت أشفقت على صباها أن يذويه التجوال الضال فوددتها مصونة فى بيتى معززة عند أهلى ، ووددت أن ينتفع بآرائها فى الحياة ملأ من حاضرتنا بين مكة والطائف . ولـكنها أبت لنفسها ما وددت ، وحال تفكيرها الخاص دون مارأيت .

واعتدل أعرابى فى زاوية المجلس وقال وهو يشير بعصاه فى وجه محدثه على عادة الأعراب :

— لو كنا نملك أمرها لاخترناها لأمثل شاب فى فتياننا ، ولو كنا نلمح الظنة فيها لأقمناها بسيوفنا . إنها يا صاحبى عقيلة علم لا ينفذ ، وعقيدة إيمان لا يتسرب إليه شك ، وإنها بعد ذلك رأى شاذ لا ينفك يسفه أفكارنا وآراءنا وعاداتنا ، ويودها لو جاءت عليها دفعة واحدة هدماً ومحواً كما تجىء العواصف الشديدة على غيضة واسعة الهشيم فتذروها .

٢١

وعادت (فكرة) فى هذه اللحظة تجر صبيا فى يدها حتى وقفت على القوم وقالت توجه الحديث إلى (ابن الشيخ).

— ما شأن هذا بالغرفة المقفلة ؟!

فابتدرها أحد الحاضرين :

— إنه يعصى آباءه ويأبى أن يسلس لطاعتهم . وقد جربنا كل أنواع التهذيب المعروفة فلم تنجح؛ والعرب تقول: (آخر الدواء الكى). فلا أقل من أن نحبسه عن الشرالى أن تلين قناته ، وتكسر شباته .

فأرسلت الصبي من يدها وقالت : إنكم سترونه ينتظرنى تحت الجدار المشرف على الغدير فى أدب الرجل الفاضل ، وإنكم لو كشفتم فى روحه عن الجوانب التى تكشفت لى لعرفتم أى صبى مؤدب هو ؟ . إنه فى جلسته التى سترونها الآن لطيفة هادئة تحت الجدار المشرف على الغدير لأطراقة تدل على مبلغ ما يتمتع به من تفكير سليم . ها هو يبدأ

خطواته فى أدب ، ويمضى إلى حيث أشرت مطيعا هادئا .
وإذا راهنتمونى على غير ذلك فسأربح رهانكم دون شك !

كان الصبي قد أرسل من يدها فى أعصاب تركها الإيحاء ترتخى ويتحلل توترها . وكان قد بدأ يخطو إلى حيث تشير فى ثقة المؤمن من جديد بفضائله ، وأنه ذو جوانب لم تتكشف لآبائه ، وتفكير سليم يدل عليه إطراقه وسهومه . خطا إلى باب الغرفة طيعا ، ومشى هادئا تتلاحقه أبصار القوم حتى انتهى إلى الجدار الذى أشارت ، فجلس جلوس الصبي الذى عرف منزلته من الصبيان ، وأطرق إطراقة المؤمن بتفكيره ، وبعد نظره ، وجمال جوانبه التى ستتكشف الأيام عنها رائعة وهاجة .

وقالت وقد أصبح الصبي على نجوة بعيدة منهم يسارق النظر إلى المعجبين بإطراقه : « إننا نغالى فى تصوير الجريمة بقدر ما نغالى فى مهمة العقوبة ، وكثير منا من لا ينكر قوة العناد فى نفسه ، ويعرف كيف يحرن عندما يستثار ، ولكننا بالنسبة إلى الأطفال والمذنبين ننسى هذه الحقائق أو نتجاهلها

فنساعد الطفل بتصرفاتنا السيئة ، ونحمله على أن يكون عنيدا ، طاغيا لا تكسر شباته ! !

إنه يخطيء كما يخطيء الكبير فنغدو فى تكبير خطيئته إلى مدى بعيد ، ونتركه يشعر أننا لا نفهم الأشياء على نحو عادل فنستثيره ونعامه العناد ، ونضع فيه الجرثومة الأولى للشرور والآثام .

ولا يكلفنا الأمر أكثر من نظرة عادلة نتجاوز فيها عن أخطائه الصغيرة ، ونغمره فيها بالعطف والحب والتوجيه والاستهواء ! .

إذا استهويناه تركنا مشاعره تحس بأنه غير شرير ، وتركنا واعيته الخفية تسجل أدلة صلاحه فيعنو بالتدريج لما تركز فى واعيته ، ويتكيف سلوكه بالكيف الذى اعتقده عن نفسه . فيغدو مثال المهذب الصالح .

أما ونحن نبالغ فى خطيئته الأولى ونسمُها بميسم الشر والإثم ولا نبالى بعقيدته فى عدلنا تصغيراً لشأنه ، فإننا سنغدو منه على طرفى نقيض . نهيئه بذلك لخصومتنا ، ونثير فى

إحساساته كوامن الدفاع عن النفس فيغدو عنيداً لا يعنو لأوامرنا شريراً لا يبالى بنا .

لأمر ما كان العصاة فى الأرض ، وكان المتمردون ، وكان الشريرون والآثمون ... إنه المجتمع يهيئ الكثرة الساحقة منهم للشر . ويعلمهم كيف يعصون ويتمردون ، ويودون لو قلبوا بنا وجه الأرض .

إنه البذرة الأولى يبذرها الوالدانِ بكبريائهم على تفهم روحه الصغيرة ، وعنتهم فى تفسير ما يبدر من عبثه، لا يلبث أن ترعاها بيئته بظلمها وطغيانها عليه، فتتأصل فيه الكراهة والبغض وينشأ على الحقد لكل ما هو كائن حى، فيتمرد ويستهين بالمعاصى ويتعلم الجريمة والإثم ، على أنهما عاملان من عوامل الدفاع عن النفس والثأر بهما من المجتمع الطاغى !.

ويأبى المجتمع على نفسه الفلسفة ، ويأبى التبصر فى نفسيات الآثمين ، ويستهين بأقدارهم فيمعن فى حقارتهم ونبذهم ... فيمعنون فى تسفيهه وكراهته ، ويمضون فى آثامهم حتى يستوى منهم المجرم العاتى ، والفاتك المهصور ! ... ليتنا ندرس فلسفة

الأخلاق ونفسيات المجرمين بقدر ما ندرس نظم العقوبات وقوانين الجرائم .

إذن لجئنا على أكثر سجوننا هدماً وتدميراً ، وانتفعنا بأكثر مواهبنا المغموطة فى البناء والتشييد .

هذا صبيكم الشرير العاتى لا يهيئه العسف والطغيان لغير الجريمة والشر ، ولا يهيئانه بسوء التقدير إلا للعناد والحرن ، وإن فلسفة مبسطة لنفسيته تدلكم على مبلغ كبريائه وعظمة روحه ، وإن فى استطاعتكم توجيه هذه الكبرياء إلى الوجهة النافعة بشىء من الإيحاء ، وفى استطاعتكم إيهامه بأنه كبير فى صمته ، عظيم فى إطراقه ، وجيه فيما يبدو من أدبه ، فى استطاعتكم بمثل هذا الإيحاء صوغه على النحو الذى تريدون دون كبت أو تعذيب .

تعال ... إلى ياحسن ، وطالع فى هذه الوجوه تقديرك . إنهم الآن يكتشفون نواحيك الفاضلة التى أبيت إلا أن تسترها بعبثك وكثرة مجونك ، وإنك بهدوئك هذا ستساعد على اكتشافك مناحيك الطيبة ، وباستمرارك فى مثل هذا الصمت ستنجلى أوضح مما كنت وتمسى أكثر بياناً وجلاء !

٢٢

ومضت ساعة انصرف الحديث بعدها إلى شئون كثيرة ومدت جفان الثريد فطعم القوم وانصرفوا ... ولم يبق فى المكان إلا سالم يؤانسه (ابن الشيخ) ... أما « فكرة » فلم يبد أثرها !

وما تناصف الليل حتى استأذن (ابن الشيخ) فى الذهاب متمنياً له طيب الرقاد ، فشيعه شاكراً ، وعاد إلى مكانه يحاول النوم فيجفوه ، ويخادعه فيعمد فى البعد .

تمثلت له كل الحوادث من أول يوم صادفها إلى آخر يوم أسلمته الطريق ليزور أهله فى الطائف على أن يلقاها فى جنوب الوادى ، ومرت متتابعة أمامه الأيام العصيبة التى قضاها فى الطائف بين زوجه وأولاده فى انتظار أوبته ، ثم أوبته مسوقا بدافع لا يملك فيه نفسه ، ثم ما عقب ذلك يوم الغار ، وما صادفه فى أحضان السوائم وما قاساه من صدمة سقفه ، وما تلا ذلك جميعه من رؤى وصور كانت تتتابع فى مخيلته تتابع المناظر فى الشريط السينمائى فتقض عليه مضجعه ، وتبلبل أفكاره ، وتتركه يتململ تململ المريض ألهبته الحمى ، ومشت رعدتها فى مفاصله

وأعضائه وشق عليه أن يستخذى لهذه الصور ، ويتململ لآلام الأرق فترك مكانه إلى باب الغرفة . . فأطل على أفق نائم فى أحضان الطبيعة تتراءى فى حواشيه نجوم خافتة الضوء كأنها بصيص ضئيل من آمال البائسين فى دنيا الحياة .

فاستند إلى حائط مهدم عند بابها ، وراح يسترسل فى هواجسه وأفكاره .

قال لنفسه : ليس فيما أساق إليه اختيار لأننى لا أختار لنفسى هذا التبلبل وهذا الشتات ، وليس فيه اغتصاب لأنى مسيطر حتى هذه اللحظة على أعصابى . . وهى بدورها تنقل خطاى إلى ما أمشى وأتنقل ، فأى معنى دقيق بين هذا التضارب ؟ وأى فلسفة فى هذا التضاد .

إن الأمر لا يحتمل النقيضين . . فإما أن أكون مختاراً لما أسعى إليه من تبلبل وشتات فأكون كمن سعى إلى حتفه بظلفه ، أو أننى مسوق إليه مدفوع غير مختار فأنا إذن سائمة تسيِّرها عصى الراعى فى أى اتجاه شاء .

إن كان الأول فها أنا حازم أمرى من هذه اللحظة على

النكوص والعودة ، وإن كان الثانى فسأمتحن السيطرة على نفسى ، والهيمنة على أعصابى .

وقام من فوره ملتهب الحواس معتزم العودة، فخانه الهوى واستعصى عليه المراد ، ورأى قواه تنحل ، وإرادته يصيبها الوهن والفتور . . . فعلم أنه صريع الهوى ، ملتاث منذ اليوم وأنه رهين أسير . . فاستطار عقله ، وجن جنونه ، وتمنى لو تردى من شاهق ، فختم حياته وأسكت أنفاسه .

ومضت عليه ساعات لا يعرف عددها كان فى أثنائها نهب الحمى فريسة الألم . . حتى أطلت ذكاء من مخدعها وراء القمم العالية ، فهبت النعاج من مرابضها ، ودلفت الفتيات يحملن القرب إلى الغدير ، والفتيان يسوقون السوائم إلى المراعى فى مهابط السيول ، ومرتفعات الوادى . . قام يتحامل على نفسه إلى الناحية التى فيها الغدير ، وتريث حتى خلى مكانه بالأمس فوق حافة فأخذ مجلسه منها وغاص إلى ساقيه فى الماء وبدأ يغسل رأسه ويديه وأطرافه كأنه يطفىء لهيباً يستعر فى أوصاله !

وتلطفت جذوة الحمى بتأثير برودة الماء ، فعاد طريقه إلى الممشى المتصل بالربوة ، ودار بعينه فى السهول المترامية على حواشيه ؛ لعله يعثر على أثر (لفكرة) ، أو يجد من يدله على مكانها . . وخيل إليه أن السابلة على طول الممشى ، والفتيات على حوافى الغدير ، والفتيان فى ثنايا الغياض ، والرعاة بين أكناف الروابى ؛ يسارقونه النظر ، ويتطلعون إليه فى شىء من معانى الأسى والأسف .

وطرق سمعه حديث كان يجرى بين اثنتين من الصبايا تردد فيه اسم (فكرة) و (ابن الشيخ) فاقترب حتى حاذاهما وسمع إحداهن تقول لأختها :

— إن (ابن الشيخ) اصطحب (فكرة) إلى بستانها خلف الوادى ليطلعها على ما أحدثه من غرس .

فرأى نفسه يدنو منها ، ويسألها عن المسافة إلى البستان ، ومدة بقائها فى العادة إذا ذهبا هنالك . . فعلم أنهما لا يبرحان أن يعودا من يومهما قبل أن يظلهما المساء .

٢٣

وأخذ طريقه إلى القصر القديم فالتقى على بابه بصبية كانت تنتظره، فى يدها صفحة عليها شىء من الطعام، وضعتها أمامه على حافة النافذة أول ما رأته، وعادت أدراجها دون أن تنبس ... فعز عليه أن لا تصله إشارة من فكرة عن وجهتها، وأنه يعنى بطعامه أكثر مما يعنى بروحه .

ومرت الساعات ثقيلة بطيئة تملؤها الوحدة والضيق، وتوحشها الأفكار السوداء الكاسفة، والقلق العارم المضطرم.

وتعالى النهار فتعالت معه الشمس، ونشرت حرارتها على قنن التلال، وشعاف الجبال، وتقحمت نوافذ الغرفة وبابها الوحيد، فأحس بوقدتها تصطلى فى جسمه المحموم، وشعر بكيانه يتخاذل .. فتهالك على نفسه مكبوباً على الأرض، وغذ فى غيبوبة عميقة.

ومضت ساعات لا يعرف عددها؛ تنبه فى أثرها على صوت الصبية تنادبه حاملة إليه صفحة الطعام، فتذكر أنه لم يتبلغ من يومه، وتذكر أن جمع الصحاف إلى بعضها مفعمة

بالطعام عنده ؛ مدعاة لكل حديث ، فعمد إليها ، وراح يفرغ محتوياتها فى الأرض خلف النافذة ، ويسامها الإناء .

وراود نفسه على لقمة يقيم بها أوده من طعام الغداء فمجها فمه ، ولم يستسغ طعمها فتحامل على نفسه ، وغدا إلى الغدير نخلع ثيابه ، وأسلم نفسه إلى مائه البارد يطفىء ما توقد من جسمه ، واستعر فى حنايا أضلاعه .

وخيل إليه أن فى بقائه بالقرية تعريضا بهوانه ، واستثارة لقصة غرامه ، ولوكها فى الأفواه، فعقد عزمه على تركها من ساعته ، وأن يمضى فى طريقه إلى أصحاب العرس فى شمال الوادى فقد بات على كثب من ليلة الزفاف ، ولا معدى من لقياها هناك ، ووقوفه منها على بيّنة يفصل فيها أمر نفسه . . فليس فى استطاعته أن يصدق الود لامرأة ليس لها مثوى ، ولا لأفكارها قرار ، ولا أن يبقى فؤاده مرتع أهواء ضالة وأمان ضائعة ! ! .

وسدد خطاه أول ماترك الغدير إلى الطريق العام للقرية

والتقى فى طريقه بغلام من البدو فأوصاه أن يأخذ الصفحة من القصر إلى بيت مضيفه ، وأن يبلغ مضيفه نبأ ارتحاله .

٢٤

وأسلمته القرية إلى سهل ينبسط أمام تلالها فى رقعة واسعة يضرب فى أحشائها مجرى السيل فى طمأنينة ولين ، وتقوم على أكنافها على مدى البصر قمم عالية من الجبال تحتضن بعض البساتين بين قيعانها، وترفع بعض المنازل على أكنافها فتبدو كأنها حارسة لما بنت فى القيع .

وعرج به الطريق عن مستوى السهل إلى مدخل صخرى بين سلسلتين من الجبال ، ثم هبط به إلى دروب تغشّيها أشجار السَّلَم تتلوى فى معارج وعرة ، ثم تطمئن بين تلال متناثرة على حفافيها ، وصخور قائمة أو ماثله بين جوانبها تنحدر منها قطع ملساء فصلت عنها فى عناية فبدت كأنما صبت فى قوالب بأيدى أمهر الفنانين ، واستوت سطوحها كأنها نماذج لصناع اتقنوها فى أشكال هندسية عديدة ، وتركوها شاهدة لما أتقنوا .

وخوض به الطريق بعد لأى فى أخاديد تجمعت فيها مياه المطر فخاضها بين عساليج تتدلى على حفافى الماء حتى برزت به إلى درب موطأ من وراء بستان مسوج بسور مرتفع من الطين النيء . وكان الجوع وطول الطريق قد أخذا من نفسه مأخذهما فمضى فى ليتّه مع الدرب متهالكاً حتى تكشف له الجانب الشرقى من الحائط عن باب مفتوح على مصراعيه رشت أرضه بالماء ، وقامت على جانبه مصطبتان مفروشتان بأنواع من الفرو الثمين ، وجلس على حافة إحداهما شيخ من الأعراب فى وجه مغدودن ضامر ولحية طويلة شعثة ، وجبهة عالية مرتفعة يطالعك منها سمو المحتد وعراقة الأصل فى بشرة لفحتها الشمس ، وجبين غضنه تقدم السن وطول عهده بالحياة ، وما أن سلم حتى انتصب الشيخ واقفا فى قوام فارع ، وحياه فى وجه مشرق ، وديباجة لطيفة ، ثم دعاه إلى الجلوس ، فجلس منهوك القوى ، فمال إليه يلاطفه ويحيه .

وكان فى حالة من الوعث والرثاثة ، وفى اطراد أنفاسه من التعب ما جعل الشيخ يزيد فى إقباله ويعطف بكليته عليه .

وانطفأت الذبالة الرقيقة الباقية من مصباح النهار ، وانتشر الظلام فى حواشى الأفق ، وسالت ذوائبه على التلال والجبال وأقبلت قطعان من الغنم تتحدر من هضاب مخضلة فى طرف من الوادى ، يقودها الرعاة إلى حظائرها فى مرج منحدر من جانب البستان ، وتحرك الشيخ للصلاة ، وأمر لضيفه بالوضوء فأسرع إليه خادم كهل يحمل إبريقا من الفخار وسجادة من حصير مجدول بسطها للضيف حتى أتم وضوءه وصلاته ، ومضيا معا في طريق جانبي إلى جوار البستان ينتهى إلى رحبة صغيرة ، ثم صعدا سلما من الخشب يصل إلى غرفة واسعة نظيفة فرشت أرضها بالبسط المجدولة من الصوف الناعم ، وزين صدرها بسجاد عجمى ، وتناثرت فى أركانها المتكآت من القطيفة فتطرح الضيف على نفسه بجوار إحداها ، وقام الشيخ ينادى من كوة صغيرة على خدمه يلتمس لضيفه العشاء .

وحمل الخادم الكهل إليهم مائدة حافلة بالفطائر الدسمة واللحم الطرى ، فتفتحت نفس الضيف على الزاد والتهمه التهام

الجائع ، وسرى عن نفسه إقبال الشيخ عليه وميله إلى إيناسه . وارتاح لمثواه فى غرفة منشرحة نظيفة .

وأقبلت فناجين الشاى كأنها أكواب من لجين يلمع فيها لونه القانى ، فأقبل عليها يستشفها فى نشوة المخمور أذواه الصدى وأودى به طول عهده بالطعام والشاى .

ودار الحديث فى أشياء كثيرة حتى جاء على ذكر الزفاف والحفل الذى سيقوم بجوارهما فى القرية المجاورة ، وعلم أنه سيكون مساء الغد .

وبات فى ليلة مريحة ، وتنفس الصبح يتضوع الأريج الشذى فى نفحاته ، فقام إلى طنف يشرف على الأودية المتموجة بالخضرة ، والزهر ، من ورائها مرج مخضل متصل بالجبل من أحد نواحيه ، وبحائط البستان من ناحية أخرى ، حيث قامت حظائر الماشية مسقوفة بأعواد الذرة اليابس ، وأرسل نظره فإذا سحابة تسحب ذيولها على رؤوس الدوح وقنن الجبال وقطرات من الغيث تساقط على المرج فيعبق عبيره ويملأ الجو بفوحه العطرى ، فتنسم ملء رئتيه وعادت إليه أنفاسه منتظمة .

ودعاه الشيخ إلى الصلاة فصليا معاً ، وطعما ، ثم استأذنه للرحيل فأذن له على أن يعود إليه ما سمحت الفرصة وأتاحت .

٢٥

ومضى به الطريق يتحدر بين مدارج السيول ، أو يصعد بين مرتفعات ونجود صغيرة تتخللها البيوت من الطين أو الحجر على مسافات تتقارب وتتباعد بقدر ما تلتوى بينها الطرق ، أو تنحدر عنها مدارج السيل .

كان يسير وحده ، يؤنسه أزيز السواقى ، آتية من مخارف الوادى ، وكان يلتقى بين كل فترة وأخرى بالرعاة يسوقون قطعانهم بين المروج ، أو يرسلونها إلى العشب المخضل بين ليات الوادى ... وكان الريح يهب عليلاً فاتراً فيعبث بأشجار التين على أكناف المروج ، فتسمع لحفيف أوراقه نغماً شجياً رخيماً ، وكانت الشمس صاحية ، تنقل خطاها بين أكناف الجبال ورؤوس التلال ، وتترك بعض النجود الصغيرة غرقى فى وهجها ، وكان بعض أطفال القرويين ينتشرون بين مهابط

الماء ومساقط السيل فى طول الطريق يحملون سلاتهم على رؤوسهم ، يجمعون فيها أفواف الورد بين حمراء وبيضاء ، ويلقطون ما تناثر من ثمار العناب ، فيجعلونه فى أفواههم ، ويتراشقون بنواه فى مرح ولعب كأن الحياة فى نظرهم لاتعدو عشباً نضيراً ومرجاً مخضلاً ، وزهراً مفوفاً ، وأثماراً يأكلون أطايبها ، ويلفظون نواها ، فى غفلة من دواليب الدهر ودورة سواقيه .

وطال به الطريق ، واشتد وهج الحر ، ونال منه طول المشى ، فلاح له كوخ ينعطف إليه الطريق فى درب محصب طويل ، فأخذ سمته إليه فى إعياء ، فاستقبلته على خطوات منه فتاة ناهد أخبرته أنه ليس فى الكوخ غيرها ، وأن أمها سبقتها إلى محفل العرس عند جيرانها إلى أن تلحق بها عندالمساء.

وما أن رأت فى وجهه لفح الشمس ، وضمور التعب حتى تقدمت إليه أن يركن إلى فىء قريب منها على حافة مصرف من مصارف السيل ... وما لبثت إلا قليلاً حتى وافته باللبن والجبن وأقراص الذرة ، وأبت عليه أن يواصل المشي حتى يعود

أبوها يحمله قبيل الغروب ، فيتولى ضيافته ، أو ينقله على الجمل إلى أقرب ملتقى للسبل .

ولم يلبث إلا ساعة حتى جاء أبوها فى غير عادته مبكراً ، وبعد أن اشتدَّ فى محاولته على المبيت ولم يذعن ، نقله على جمله فى الطريق المؤدية إلى بيت العرس .

وما اصفرَّت الشمس فى ميلها إلى المغيب حتى تراءى له عن بعد شرف مرتفع يقوم عليه منزل واضح المكانة بين بيوت صغيرة ، يطول عليها بشرفتين تطلان على سرة الوادى من ناحيته الشرقية ... فاستوقف صاحبه الجمال بدعوى خاصة عارضة لابد له منها قبل بلوغ القصر .

وبعد أن تركه يعود بجمله لوى سالم فى طريق جانبى ، تتخلله دروب متشابكة ، تنتهى عند شعب ضيق مجهول المسالك حتى إذا وقف عند مضيقه تبين له درب يطمئن بين سلسلة من التلال ، ويمضى فى اطمئنانه مستديراً إلى نهاية تحاذى الشرف القائم عليه المنزل من ناحيته الخلفية ، فمضى فيه حتى كان على نجوة من الشرف ، صادفته ربوة مُردة السطح ، فصعدها

وأشرف من سطحها على السهل المنبسط أمام القصر تكتنفه على مرامى البصر مناظر المروج ، وتحتضنه آفاق وعرة من التلال والهضاب ... ورأى الشرف المزدحم ببيوت القرويين يخوض فى سرة الوادى ، وتصطفق بين أقدامه زمرة من القرويين ، يموجون فى أثواب زاهية ، ويلوحون فى الهواء بسيوفهم وبنادقهم ، وجلبة صاخبة تملأ عنان السماء بأهازيج منظمة وأغان مرتلة .

وسال ذوب الأصيل على أكناف الأفق، وبدأت قوادم الليل تحيل السكون إلى لون داكن يتعذر معه تمييز الأشياء ، وبدأ بهر الشمس ينجاب عن صفحة القمر كامل الاستدارة ، لألاء كأنه الفضة الصافية المجلوة .

وتطلع فى جلوسه على سطح التل إلى الزمر المائج من القرويين علّه يميز من بينهم « فكرة » ... فحال الإظلام دونه فاستأنف المضى منحدراً من التل فى طريقه إلى الحشد المتكتل فى جنبات السهل حتى وازاه ، واختلط بالمائجين حول أكوام النار المشتعلة يصطفق لهيبها ويستعر ، ويرسل ألسنته حمراء

تطعن فى أحشاء الظلام ، فتبدو الوجوه على ضوئه متوردة ، والسيوف لامعة .

وتفتح سمعه للجلبة الصاخبة ، فاستوى منها نغم مرتل وترجيع منظم ، وصافحه صوت الحادى فى نبرة واضحة وأداء قوى :

ياعم لا تفرح علينا بكثرة	والكثر ياعمى وحنّا شواء
إن الطيور كثيرة أظناؤها[1]	إن الحرار[2] قليلة الأظناء
حنّامصاليبالحروببروسنا	حنا حصاة الداء على الأعداء
حنا ندينْ جاءنا من دَيْنِنَا	ونْدينِ الديرة[3] بغير جزاء

ويرجع صوته فى ترتيل منظم شخوص تموج ملتفة حول النار المشتعلة فى حلقة تميد بالراقصين فى حركات رشيقة ، وتواثب منظم منسجم . مشرعة سيوفهم ، منطلقة أصوات بنادقهم تدوى فى الفضاء كأنها صدى للترجيع المنظم والنشوة العميقة التى اشتملت الراقصين والمتواثبين .

---

(١) أظناؤها يريدون بها الأولاد .
(٢) ويريدون بالحرار ... الأحرار .
(٣) الديرة الحي من القبائل .

ومضى يجوس حواشى الحلقة الواسعة الزاخرة يطربه دوى الطبول ، وأهازيج المغنين . وراقه غزل الشعراء فأرهف سمعه ، وأنصت إلى معانيه الرقيقة .

ما سجا البلبل بصوته أو نَعَقْ
أزرق الطيقان[1] بالدوح الوريق
ما تجلجل صوت رعـــدُهْ أو غبقْ
بالخزامى والنفَل الّا وفيـــق
من محبـــة خرّد بالمفترق
عارضَنْ لى عنـــد مثناة الطريق
والْتزمت بكاعب منهن أرق
وانطلقْ يهتز كالغصن الوريق
جـــــل الإله اللّى خلق
فى شفايفْهن أصناف العقيق
لو تشوف خدودهن وقت العرق
كان عُفْتَ المسك والريح العبيق

---

(١) يريد أنه مطوق باللون الأزرق .

من ثناياهن براقٌ بَرقْ
أثبتوه أهـل الحسا وهْل الحريق
ليت ابن يعبوب منجوب العمق
شاف لى زمل[١] العذارى يوم سيق[٢]
كان عقله فارقه ولَّا شهق
شهقه من عقبها يبقى غريق
كم ولىٍّ فى محبتْهُنْ زهـق
بعد ثالث يوم شقوا له شقيق

٢٦

كان تائها فى بيداء واسعة من الخيال .. كان دوى الطبول ، وترجيع الأنغام ، وتنظيم المقاطع ، وسلامة المعانى المرتجزة . قد نقلته إلى غير عالمه ، وتركته فكرة حائرة فى فدافد لا نهاية لها من الخيال ، فلم يفطن إلى (فكرة) وهى تخترق الصفوف حتى تحاذيه ، ثم تضع يدها فى هون على كتفه

(١) الزمل الجمال . (٢) سيق الجمال .

ولما فطن إليها كانت قد قادته فى رفق إلى خارج الحلقة ، ووضعت يدها فى يده تحييه .

ماتت الكلمات على شفتيه ، وغاصت المعانى فى فؤاده ، ومشت فى مفاصله رعدة حادة لم يتمالك معها الوقوف على ركبتيه . فانخرط على الأرض فى إعياء وتخاذل ، وعالج الكلام فلم تطاوعه شفتاه بغير ألفاظ مشوشة تكسرت فى حلقه .

وهالها أمره ، ولم تفهم سببا واضحا لما طرأ . فعزت ذلك إلى وكسة تنتابه من ألم أو مرض . وقالت : وهى تمر بيدها فى رفق على جبهته : أتشكو من شىء ؟ .

فبدا كأنه يصحو من حلم ، ويستفيق من سكر ، وعاد يستجمع قواه ويستعيد نشاطه ، وشعر بالمعانى تحضره والألفاظ تسعفه فأشرق محياه ، وفتح فمه بالكلام فقال :

— فكرة ! ! ما قيمة العلم بأسره إذا كان لا يلمس الناحية الفكرية فى صاحبه ؟ . فيفيض من إشعاعه عليها ، وينير جوانبها وآفاقها .

والفلسفة ؟ . — أهى أثارة من المنطق السليم ، والتفكير

الحر . يحصون بها حقائق الحياة ، وتنتصرون فيها لنواحى العقل ؟؟ . أم هى تعلات وعلل تزجون أوقات الفراغ ، وتحاولون أن تدلونا على وجودكم ! ! وتثبتون أسماءكم فى ثبت المفكرين والعقلاء ! !

ثم التهذيب ! ! التهذيب ما قيمته فى الحياة ؟ . إذا لم يتناول غرائزنا الوحشية الأولى بالتشذيب فيحيلها إلى مشاعر حساسة تحس وتشعر وتتقد وتتألم ؟ ؟ .

فكرة ! ! ما فى الحياة إلا الزيف ، وإلا البهتان والتضليل . وإن طغيان الحاكم بأمره كعنجهية العارف بدلاه والمدل بجماله سواء بسواء !!

فكرة !! إذا أنحى مثلُك باللوم على طغيان الطاغى فليس فى الأمر أكثر من تجربة تحلين فيها محل الطاغى بمركزه أو جاهه ، أو المدل بجماله . فإذا أنت تمثلين الدور إياه ، وتؤدين نفس الأداء الذى كنت تنكرينه على الطاغين والظالمين !! . . فكرة ! ما كان أبو الطيب شاعراً كآحاد الشعراء ، وإنما كان معلما لا يشق غباره عندما يقول :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفـــة فلعلة لا يظلم

٢٧

كان سالم يتحدث وفى صوته نبرات اليائس ، وحركات الملتات . . وكانت فكرة تصغى إليه مأخوذة بحماسته مندهشة له تخيل إليها أنها أمام شيء جديد استحوذ على عقلية صاحبها وآمن به وجدانه : وأنها منذ اليوم متهمة أدبياً فى نظره بما لا يتفق ومثلها العليا فى العلم والأخلاق . . فكبر عليها أن تتسع بينهما مثل هذه الهوة ، وأن يقوم بينهما مثل هذا الخلاف على قاعدة من سوء الفهم والتواء القصد .

جزعت لهذا الخاطر ، ونظرت إليه ساهمة الوجه ملتاعة ثم قالت :

— لاتدرى كم تسيئنى بالتوائك فيما تتحدث ؛ وأنت اليوم تروعنى إلى جانب ماتسيئنى ، فلو تفضلت فكنت أوضح من هذا لاختصرت الطريق ، وهونت علينا كلينا المشقّة ، وانتهيت بنا معاً إلى نهاية سافرة .

— لا سفور بعد اليوم ولا اختصار . . . كفانا عبثاً بالألفاظ ومدلولاتها ، والمعانى وما يفهم منها ؛ وكان الأخلق

بنا ونحن ننعى على المزيفين زيفهم أن نسمو بأنفسنا عما نعى ونعيب ، ولـكنه أسلوب الحياة . . . فى الحياة من ينعاها ويتنكر على أصحابها ، ويرسل الصيحات مدوية ، والاحتجاج صارخاً ، حتى إذا انقلب الوضع ، ودارت دواليب الحياة بالفريقين وصادفت المتنكرين مثل الملابسات التى كانت تلابس غيرهم عادوا إلى مثل الزيف الذى أنـكروا . حذوك القـذة بالقذة ، ورجعوا إلى مثل العيوب التى عابوها ، ونسوا جميع المثل التى كانوا يدعون إليها ، والآراء التى ينادون بها باسم العلم أو الفلسفة أو الأخلاق .

— ولـكننا لا نتفاهم وأعصابنا تملى علينا وتتحـكم فى أسلوب حوارنا . . . ما يمنعك أن تشير إلى ناحيـة الزيف فى حياة مثلى ، لتعرفَ ما إذا كنتَ عنيدة أُمعن فى تضليلى وعبثى بالألفاظ ، أم شيئاً جديداً لا عهـد لك به فى حياة الزائفين الضالين .

— أنسيت أننى كنت على مائدتك من أيام ، وأننا بتنا متفقين على الارتحال من الغداة إلى هذا البيت ، وأننى أصبحت

لأجد فى مكانك أرضاً يبابا ، وصعيداً خالياً ، لا تطمئننى فيه إشارة تتركينها ، ولا كلمة تهدينى فيها إلى سوائك . . . إنها الأنانية أيتها الأخت الصدوق؛ وإنه الغرور ينفث فى العقد ...!!

— وإنه . . .

— وإنه . . . العلم الضال ، والدعاوى العريضة فى التدين والسلوك .

— وإن شئت فقل : إنه العصب الحاد والمزاج المتوتر وإنه أسلوب الخطابة لا يسلس للمنطق . . . وإنه قبل هذا أو بعده جنون الهيام ، وتفكير الملتاثين من العشاق والمغرمين جئنى بعاشق واحد لا يلتاث ، وتضطرب أعصابه، لتقيم الدليل على أنك تعيش منذ أحببتنى خالصاً لمنطقك ، لا يشوبك ما يشوب المرضى فى عقولهم والملتاثين . . . ليتك تدري أن الأمر أخصر مما أسهبت ، وأهون مما شددت .. وأنى غدوت على شأنى بحافز ملحٍّ مستعجل ، وأنى تركت مكان الكلمة التى تطلبها صفحة ضافية اعتذرت فيها بما دفعنى من أسباب ، وجعلت بينى وبينك موعداً نتلاقى فيه فى هذا البيت .

— لم أتسلم شيئاً .

— إني وضعتها في يدٍ أمينة موثوقة ، لتسلم إليك في الغداة فإذا صادفتها ظروف خاصة خرجت عن طوقي ، وما رسمت ، فالذنب ذنب الظروف ، ولا جريرة لي ... أما أنت ففي مكانك لم تبرح الخطيئة بما تسرعت ، ولم تعد الإثم بما تجنيت عن غير روية أو بحث . .

قالت هذا في نفس مضطرب ، وألفاظ لا تكاد تطمئن مقاطعها فقد كانت تعلم أنه يعوزها الدليل الحاضر على صحة ما تذهب إليه ، وما علمت أن الصدفة التي خرجت عن طوقها بالأمس لتلوى بقصدها عادت اليوم تخدمها في أدق ساعات الحاجة ، وأنها مثلت بين يديها في شخص (سليم) الأسود تنبئ عنه صرخاته وسط الضوضاء والجلبة ينادي باسمها باحثاً عنها :

— هلم يا سليم . . . متى وصل أعمامك ؟

— إنهم الساعة يترجلون عن جمالهم ، وقد تركتهم في طلبك لأنك أمنتني على الورقة التي أمنتني لهذا السيد . . وقد داهمنا ليلتها سيل طمى على مشارف جيران لنا ، فخرجت من

توى فيمن خرج منهم نبغى مهابط السيل . . . وعندما عدنا فى أصيل اليوم الثانى لم أجد أثراً له ولم أستدل من أحد على وجهته .

كانت عبارات الأسود تتدفق من فمه . . ويده تعالج عقده فى كمه برزت من طياتها إلفافة كبيرة قدمها إلى فكرة فما زادت أن أشارت إليه بتقديمها إلى سالم فأخذها هذا بيد تتخاذل ، ونظر إليها وإلى الأسود بطرف كسير ، ثم أطرق ينكث الأرض بأطراف الصحيفة فى ذبول وصمت .

لم يقو على تسديد عينيه فيها ، ولم تسعفه كلمة بالنطق ليعتذر إليها أو يقول شيئاً . . . كان أشبه بعاصفة هاجت فدمدم هزيمها ، ودوى إعصارها ، وثار غبارها . ثم همدت فجأة فلا تكاد تسمع لها نأمة أو حساً .

كان ينقل عينيه من المارة إلى المشاعل حوله ، ومن حلقة الرقص ، يتواثب فيها اللاعبون إلى مشرب القهوة صفت عليه الأباريق النحاسية يتحاشى بذلك أن تلاقى عينيه عيناها . . فأدركت معنى سهومه ، وتخاذل نظراته ، وأشفقت أن تجهز عليه ، ورأت أن تحيل عنه إلى أن يسرى عن نفسه ، وتنحل

ضائقته . . فاعتذرت له بالغياب فى بعض أعمالها على أن يجتمعا مع الفجر فى مجلسها من هذا المكان .

٢٨

ما انطلقت من مكانها حتى تطرح على نفسه متساقطاً ، وافترش الرمل بقامته منهوكا .. وكان النسيم فاتراً رقيقا ، وصفحة السماء مزدانة بقطع من الغيم ؛ تماوج فى مثل ألوان البنفسج ، وبزغ القمر من ثنايا سحابة دكناء ، فتكسرت أضواؤه فوق أكناف الروابى ، ورؤوس النخيل ، ثم ذابت بين ثنايا السهل المترامى .. فأرسل بصره إلى مطلع القمر من الغمامة الجون ، وابتدر يناجيه :

ألك حبيب أيها القمر ؟ ..

وحبيبك هل يشجيك ويسبيك ، فتحمل نفسك على الشجو والسبى ؟ ..

وحبيبك هل يترع لك كأس الهوى دهاقاً ، ويسقيك حميا الجوى سلافا ، فيثملك وينشيك ؟ . .

إنك إذن مثلى أيها القمر ..

ولكنك مشرق الديباجة ، وضاء الجبين .. ولم أكن أكثر من ورقة صفراء عصف بها الريح ، وأذبلها الهوى .

ألك حبيب أيها القمر ؟ ..

وحبيبك هل يملك عليك طيّتك ؟ ويمسك دون زمامك ؟ ويغريك عن موطنك ؟ وينسيك أهلك وولدك ؟ .

إنك إذن مثلى أيها القمر .

ولكنك مقيم جواب . تنعم بالقرب أنى جدَّ بك السُّرى ، وتهنأ بالجوار مهما شطت بك أعناق السحاب ..

وأنت أيها الجبل السامق ، والنجود الصامتة ، والهضاب الوعرة الذرا ، والكهوف الضاربة فى أجواف الصخور . هل رأيتنّ فى هذا التيه الفدفد ضائعاً قبلى برحت به الأنواء ، وطوح به الهوى ، فغدا فى غير طية ، وخبط فى غير رشد ؟ ..

لتبق ذكراى فى معارجكم زبوراً يقرأ ، وقصة تتلى ، وأنشودة يحدو بها الركبان كلما ارتفع بمطيهم نجد ، أو اطمأن تحتهم سبيل .

قولوا : هنا افترش الأرض ماجن أضله الغى ؛ وعصف به الهوى الضال .. هنا تساقط على نفسه منهوكا لا يدرى أسعيد هو بشجو الحبيب وإغرائه ، أم شقى بضيعته وشتاته ؟

واستنام لمناجاته ، ومضى فى هواجسه وأفكاره ؛ حتى تناصف الليل ، فشعر أن جلبة الصاخبين فى الوادى يخفت صوتها ، وحسبه أحد المارة نائماً ، فأقبل عليه يوقظه ؛ حتى استوى جالساً ، ورآهم يمدون السماط عليها جفان الثريد فى منبسط السهل ، فانضم إلى إحدى حلقات الأكل ، وتبلغ ما طاب لنفسه أن تتبلغ ، وجىء إليه بأكواب الشاى والقهوة فى غرار الشاربين ، فاحتسى ما لذ له الاحتساء ، واستأنف الرقص واللعب حلقاته ، فقام يتحامل على نفسه ؛ حتى وقف عند كل جماعة ، واختلط بكل زمر ، وسمع من تراتيل المنشدين ما أثمله وأشجاه ، ثم دلف إلى جماعة المتساجلين ، وكانوا خليطاً من ثقيف وقريش ، فشاقه بيانهم المرتجل على طريقتهم ، وراقته العذوبة تسيل بها معانيهم .

صوت من ثقيف :

أيامنا تأتى لهـــا فوجات ما أعرف لها خبلا ومجنونه
واللَّى حصل فى أيامنا صكات تلقى قرون إبليس مقرونه

صوت من قريش :

تقليبها من قَلْبَة النيات شِى متباينـه وشِى مدفونه
وإذا اخزِيت ابليس نام وبات وإذا كسرت النفس ملعونه

وطال تجواله ، فنال منه التعب ، فاستأنف عودته إلى مكان الميعاد ، فافترش الرمل ودار بعينيه إلى ناحية القمر لا يرين عنه ، وكان قد سفر نصـفه وغاب النصف الآخر فى غمامة دكناء .

٢٩

وتبلج الفجر فانبلج معه قَدٌّ ممشوق يخطر فى قوام ناحل وثوب أبيض ناصع ، وخمار طويل الردن ، عقد طرفه فى رأسها ونشط حول عنقها ، وترك الطرف الآخر يجرجر وراءه صغار الحصا فى خشخشة خافتة كأنها وسوسة الحب فى شغاف القلب .

وانطلق قائماً يحييها ويبسط يده فى احتشام لمصافحتها . . .

فأغرق بصره وجـه يشرق بالفتنة فى سحنة ضامرة أشبه ما تكون بسحنات الشعراء والفلاسفة ، ومحيا جهار جذاب تشع فيه عيون نجل سود الأهداب طوالها ، وثغر ينفرج عن بسمة كأنها تعويذة السحر ، فترامت نفسه عليها ، وأحس بحافز يدفعه إلى أن يطويها بذراعه ، وينهال علي ثغرها تقبيلاً ولثماً ، ولـكنه تخاذل وانحلت عراه ، وبدرت من لسانه فلتة سمعت صوته يتهدج بها : « والله لا أفعل ... وإنه لأخلق بهذا النفس الطاهر أن يتنسم فى أجواء نقية لا يشوبها رجس أو حرام » .

صافحت أذنها هذه الظنة ، فعلمت أنها صدى هواجس فى النفس ، ونظرت إليه نظرة طويلة ناعسة ، فياضة بالحنان ثابتة ، تنطق بمعنى العتب والرثاء والعزم ، والإشفاق والصرامة والودّ فى آن واحد ، فخالجه من ذلك ما خالجه من خوف ، وشعر أنه أمام نظرة زاخرة بمختلف الشجون ، وأنه منذ اليوم أمام سريرة تضطرم بأحداث جسام .

وتغافلت هى عمـا بدا على قسمات وجهه من نبوءة ، وبادرته الحديث تقول :

— ما أكثر شقوتنا بأنفسنا فى هـــذه الحياة ، أترى آلامنا فيها ، وأكدارنا ومتاعبنا ! .. إنها من وضعنا وصنع أيدينا ، إننا نعمد دائما إلى ما ليس فى أيدينا ، فنضفى عليه كل محسنات الحياة ومغرياتها ، ونجعل منه مثلا أعلى لما نطمح إليه ونتطلَّع .

ولو عقلنا لاستطعنا أن نفهم أنه ليس فيما يغرينا من هذه المحسنات إلا ما أضفاه خيالنا الواسع ، وما وشاه خداع النظرة البعيدة من لمعة وبريق .

يقولون السعادة .. ثم يتطلعون إليها ، ويتشوَّقون إلى منالها !! فهل شهدت بربك سعيداً سُرَّ بها واطمأن بنوالها ؟ .

فى المسألة إذن أمران : إما أننا لا نشعر بمـا ينالنا منها ، أو أننا نشعر ، ولـكننا لا ننال ، وفى الحالين تغرير ، وفى كليهما تكليف وتعذيب .

ينزعنى نازع إلى التغلغل فى أحشاء غابة ، أو التصعيد فى

مسالك جبل شامخ ، أو الهيام فى شعاب ضالة ، وتهفو نفسى إلى ذلك بمـا تضفيه من خيال على هذه المتعة ، وما هو إلا أن أتغلغل فى الغابة ، وأتفيأ من أدواحها ظلا وارفاً ، أو أصعد فى الجبل حتى أنتهى منه إلى القمة ، أو أهيم فى الشـــعاب ، وأجول بين هضابها ووديانها ، ثم أقف هنا أو هناك ، لأرى مكان المتعة فأجدها ولا أجدها . . . أجدها فى لغـة الأرقام والمساحات ، لأن ما سلكته إليها كان مقدراً بالمتر والسنتى ، ولا أجدها لأن ما أضفيته عليها من لمعة وبريق كان من رتوش الخيال .

وتصافح عينك لوحاً زيتياً ، أبدعه فنان ماهر ، فتصافح روضاً أريضاً يتسلسل المـاء فى حواشـــيه ، وظلاً سجسجاً يصارع النور على عشب مخضل أو يعكسه خيوطا صفراء على جدول رقراق ، فتتمنى لو وسعك أن يكون لك فى مثل هـذا الروض قصر ، وكنت تشرف من قصرك على مثل هذا الجمال الممتع .

وليس فيما تمنيت أكثر من أن يواتيك ظرف ... فإذا

أنت فى النافذة ... وإذا أنت مشغول بخاطر فى نفسك عن الأرض والسجسع ... لا ترى فى الخيوط الصفراء والجدول الرقراق أكثر مما يراه المزارع فى مناظر مَلَّ تكرارها ، وسئمت نفسه استقرارها على وتيرة واحدة وشكل واحد .

وإذن فما هى السعادة ، وأين مكانها من مناحى الحياة ؟ .

إننى شخصياً أرى أنها (رهين تفسيرى) بهذا أعرفها ولا أزيد ... أما مكانها فهو فى حدودى ، وعند متناول يدى ، السعادة تصوير وافتراض أكثر منها حقائق مقررة بحيز أو حدود .

والسعادة أشباح تصطنعها أحلامك، وتضفى على أجسادها العارضة ما يحلو لك من بريق حتى إذا ران الكرى عن أجفانك تقلص كل أثر لما أضفيت وما وشيت .

ما يعنى إذن أن أفترضها فى حدودى ، وأضفى عليها فى هذا الحدود كل ألوان التاميع ، فأنا سعيد بالغنى والثروة ، لأنهما قواما الحيثية الوجيهة ، وسعيد بغيرهما ، لأنى فى حصافة من جميع المواصفات الثقيلة التى تقتضيها الوجاهة .

وأنا سعيد بتبريزى على لدّاتى ، وسموى على مراكزهم . وأنا سعيد بغير ذلك لأنى فى نجوة مما يترتب عليه التبريز والتفوق من رسميات زائفة ؛ تغلنى وتمنعنى من المتعة الروحية الخالصة .

أنا سعيد بما تحدر إلى من مجد الآباء ، وعراقة أنسابهم ، لأنى فى المكان المرموق بالتجلة والتعظيم ، وسعيد بضعة حسبى لأنى أمام فرصة مهيأة ، لتأسيس مجد أضع لبنته بيدى ، وأورّثه أحفادى تركة غنية بالجاه والحسب .

أنا سعيد بما أكتمل لى من عافية فى جسمى وقوة فى بصرى ، وسعيد بغيرهما لأن قوة معنويتى لا تعدلها قوة لأن فقدان بصرى نعمة حالت دون ما يكدرنى فى الحياة ويسوءنى .

أنا سعيد بقرب الحبيب ووفائه ، وسعيد بهجره وبعد مزاره ، لأنى فى الهجر أمتحن ثباتى وفى بعد المزار مندوحة من الاستغراق فى عبث ضال ونزق طائش .

٣٠

كانت تتحدث وفى لهجتها من طمأنينة العلماء وتركيز ألفاظهم ما يبدد الأحلام فى صباها الفاتن ، ومحياها الوضاء . وفى معانيها من العمق والغزارة ما يلهم الفلسفة ويفتح آفاقها .

وكان سالم يستمع إليها وفى صدره وجيب الضعيف الواهن ضعضعه الهوى ، وحز فى فؤاده الأمل الكاذب ، وما انتهت من حديثها حتى تواثبت الكلمات إلى فمه ، وتزاحمت المعانى والصور أمامه فابتدرها يقول :

— لا شىء أحفل بالغيظ منكم معاشر العقلاء والفلاسفة . تأبون إلا أن يكون تعقيبكم على الحياة متسما بالقسوة والجمود ، كأن الحياة جميعها فى تظركم صور مادية بحتة يمضى عليها ما يمضى على أحجار الشطرنج تتنقل بها يد اللاعب من اليمين ، ثم تحيلها إلى الشمال فى الأوضاع التى يراها ، والاتجاهات التى يختارها .

ولكنها الحياة أعمق من هذا وأبعد غورا واتساعا . فى الحياة هنات لا تخضع لقاعدة ، وفيها أشجان

لا تعرف المنطق ، وفيها أهواء لا ينتظمها سر واحد .

ألم تسكرى مرة فى حياتك يا أختاه ؟ . إذا كنت لم تفعلى فانظرى إلى أول سكير يصادفك ، وتعقبى بوادره وأفعاله وصور أعماله لتعرفى أنه لا يلزم أن يكون جميع ما فى الحياة عاقلاً يمضى بمضى أذهانكم ويمشى مع أوضاعكم المقررة ، وفلسفتكم الجامدة . . إنما الحياة حافلة من وراء هذا بشتات من الصور والمنازع . . . يأتى السكران والهاوى والفنان والعابث والشاعر والمجنون فى أولها وليس فى آخرها حد تأتى عنده نهاية . فقالت :

— أتعنى أننا نعبث عبث السكيرين ، ونهيم هيام الشعراء ، ونلغى مسكتنا من المنطق والفهم إلغاءها عند المجانين ؟ .

— لست أعنى كل هذا إطلاقا ، ولكنى أنفى الحذلقة القاسية وأن نتجاهل الملابسات ولا نقدرها . ليس فى المنطق أن يأتى عرش بلقيس فى ردة الطرف ، ولا فيما يخضع للقواعد أن يعمل الجن لسليمان ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان

كالجواب وقدور راسيات . ولـكنه حدث. لماذا ؟ . لأن الحياة أعمق من أن ينظمها سر واحد ، أو يحدها منطق مفهوم ، أو قاعدة مطردة .

— لسنا فى هذا نختلف . إنى أرى رأيك فى أن للحياة صوراً وأسراً أعمق من أن يحدها منطق كما هو الشأن فى عرش بلقيس وأن فيها ذهنيات ومشاعر وأشجان لا تمضى مع القاعدة والعقل . ولـكنى لا أرى رأيك فى المضى بهذه المشاعر إلى النهاية التى يستبيح فيها السكير والشاعر والعاشق لنفسه إرسالها على سجيتها بدعوى أنه مدفوع بنوازع لا تخضع للعقل والمنطق .

للسكير استفاقة يصحو فيها ، وللشاعر والعاشق والهائم والفنان مثلها . وإذا استفاق حتى المجنون انتظمه منطق الحياة فإما أن يساير المنطق على أثارة بينة ، أو يسدر فى غيه سدارة من لا يبالى ما يصنع .

— ألست بالأمس تركين الجنون فى نفسك .

— ذاك جنون قاله الناس ، ولم أقنع بما يقولون ، وما علاقتى

بما يقول الناس إذا كنت على أثارة بينة من نفسى ؟ وجنوننا اليوم جنون من يسدر فى غيه دون أثارة أو منطق .

— افترضينى فى رأيك مجنونا ؛ ولا علاقة لى بما تقولين ، فإنى على بينة من نفسى .

— أنت تخلط منذ اليوم . . . لا أجد لنفسي مندوحة للقول ضدك ، إذا كنت تملك أثارة مقنعة ، وبينة واضحة ... فما بينتك فيما تختار ؟ ما هى بينتك فى أن تسدر فى هذا الغى ، وتمضى مع أهوائك وأشجانك مضى السكران ؟ ما يمنعك أن تصحو مرة ، تعود فيها إلى منطقك ؛ لتوفق بين ما تسدر فيه وبين ما يتفق ومنطق الحياة .. أنا لا أقلوك ، ولكنه يساورنى فى شأنك ما يساورنى ، ولقد فكرت فى أمرك طويلا فوجدتك تتشوف إلى متعة تضفى عليها كل ما يضفى خيالك من لمعة وبريق ، وإنك فى سبيل ذلك تودى بنفسك وأختك فى مهالك لا قرار لها ولا حدود .

— لعله لا يساورك فيما يساورك . أننى أخون الولاء ،

أو أدنس الحب ، وأتنزل إلى دركات العابثين ، وأطيع فيك منزعا فاسدا ، أو هوى خبيثا .

— أنت عف فى نظرى إلى حد لا أرتاب فيه إلا إذا جاز لى أن أرتاب فى أخى ، ولكنك ضعيف القلب ، لا تملك هواك .

— أتعنين بهذا أن قواى تخوننى فى حفظ ولائك ، وهواى يقودنى إلى منزع فاسد .

— ليت كل ما أخافه هذا — إذاً لطمأنت نفسى — فإن فى ثقتى بها حصافة ، دونها خرط القتاد ، ولكن الأمر أعقد من هذا ، وأعصى منه على الحل ... أنت يا صديقى أب لأطفال هم أحوج الناس إلى عنايتك ، وزوج لامرأة لا يدرى إلا الله كم تعانى فى سبيل هيامك العابث . فعد إلى أحضان زوجك ، وقم على عيالك قيام الرجل الشريف لا يثنيه النزق ، ولا تعصف بقلبه عواصف الهوى العابث ، والتجنى الطائش .

٣١

قالت هذا ثم أومأت إليه إيماءة خفيفة تستطلع فيها رأيه فيما ذهبت ، وتستنطق حجته فيما يرى ، لكنه كان قد ارتبك ،

وضاعت عليه مذاهب القول ، وشاع فى وجهه وعلى خديه اصفرار المرضى وذبولهم .

انطلقت مخيلته انطلاق الشاعرية الهائمة تبحث عن كلمة يصوغها،أو جملة يبهمها أو رأى يعالج به موقفها الحازم، فلم ترجع إليه بطائل ، ولم تسعفه بحرف واحد يلفظه فتضعضع وتخاذلت قواه وتراءت له شواهد الفراق مبثوثة حوله فأجهشت مآقيه وأحس بدمعة تطفر بين أهدابه ، فمال بعينيه على كتفه يمحوا أثرها أن تنم عليه .

فاقتربت منه فى حشمة ومرت بيدها على راسه فى حنان واضح ، وقالت : ناشدتك الله ثم الأبوة البارة بولدك ورباط الزوجية الذى يربطك بأهلك إلا ما أعرتنى عقلك ، وعلمك ، وحكمتك ساعة واحدة .. ألست تعيب فى الرجل العادى نزقه وضعف نفسه ، وتخاذله عن قيادها إلى السبيل السوىّ فما بالك به وهو فى مثل حجاك وعلمك وسمو تفكيرك ؟ ؟

إننى أجلك عن خداع نفسك وإيرادها موارد الهلاك ، وأنت من أعرف عقلا واتزانا وتفكيراً ... عد يا صاحبى إلى

نعيم بيتك ، وتمتع برغيف طازج على خوانك بين صبيتك ، ودعنى بعيداً عنك أطوى نفسى على صداقتك الخالصة وذكرك الجميل ، وثق أننى ما نأيت أحفظ للجميل ، وأحفل بذكرياته الخالدة » .

٣٢

وزلفت الشمس فى مدالجها من صفحة الأفق ، وترامى إشعاعها على أكناف الجبال ومنحدرات الوهاد ، ثم مشت أشعتها فى مسالكها من الأرض حتى افترشت السهل المنبسط على سعته ، وكانا فى غمرة من النجوى والشجون لم يستيقظا منها إلا على حرارة الشمس وقد غمرتهما وأشاعت فى جسميهما وقدتها فانطلقا يعبران أطراف السهل مما يحاذى ضلوع الجبل ، ويبعدان ما أمكنهما عن بيوت الشعر المكتظة بالأضياف فى سرة الوادى ، حتى إذا استوى أمامهما الطريق الخلفى الذى سلكه فى جيئته بالأمس : استويا معه ، ومضيا يمشيان فيه متجاورين بأجسامهما ، متباعدين بما غشى على نفسيهما وضغط على روحيهما .

كانت (فكرة) تمشى ورأسها مطرق فى هيئة المفكر المستاء ، وخصلتان من شعرها الفاحم تتراءى من وراء دثارها الشفاف ، متهدلة على كتفيها الجميلتين ، وكان سالم خلفه يتابعها ويداه مضمومتان خلفه وإغراقة من الذهول شائعة فى وجهه ، وسيال من الخوف يغشي محياه ويضغط على أنفاسه ، فيبدو فى تهالكه وتخاذل أقدامه وماران على وجهه من الذبول كأنه مومياء من عاديات الفراعنة انبعثت تجوس خلال الديار وتمشى بين فدافدها .

ومضى بهما الطريق فى خط يستقيم مرة ، ويتعرج أخرى ، وينحنى كلما صادفتهم غياض أو بساتين . . وكان أزيز السواقى وخرير مياهها فى البرك الصغيرة يشيع فى الجو موسيقية عذبة الألحان جميلة الأنغام ، وكان عبير الأزاهير يتضوع بين أفواه الشعاب فيفعم الوادى أريجاً شذىّ العطر جميل الرائحة ... وهبط الطريق بهما إلى وهدة انبجس من شقوقها ماء زلال عذب ، فأطفآ وقدتهما من ينبوعه ، وتفيآ بجانبه أيكة باسقة من أشجار السوسن تكتنفها مروج مخضلة يانعة ، ويحف بها نبت مفوف

الأزهار يتماوج كلما هفهف النسيم عليلا رخياً . . . ومسهما الجوع وكانا لم يطعما من ليلتهما ، فعمدت إلى رغيف كانت تحتفظ به فى ثيابها وقطع من الجبن ؛ والمربى فأكلا ثم نثرا ما بقى من فضيلات إلى العصافير ، ثم قاما إلى الغدير فنهلا منه ماء نميراً ، وغدوا إلى مكانهما من الأريكة تنعشهما طراءة الهواء ، وتفتح ما غلق من نفوسهما وضغط على أرواحهما .

وترقرق ماء الحياة فى محيا (فكرة) وعاد بريقه وإيناسه ، وهدأت أعصاب سالم ، وأشرق وجهه بالصفاء وانشرح قلبه ، وتفتحت نفسه للكلام فقال :

— كلما فكرت فى أن الإنسان هو الإنسان مهما سما به رجحان عقله ، وصفاء ذهنه وفهمه للأمور ، داخلنى من ذلك غيظ شديد ، وتمنيت لو عصفت بالأرض عاصفة جاءت على كل العقول الراجحة والأذهان الصافية فلم تترك على وجهها إلا الغفل من خشاش الناس ، وإلا السذج من بسطائهم ودهمائهم ليخلدوا إلى طبائعهم الأولى لا تنغصهم عنجهية مفكر ،

ويستنيموا إلى جهلهم وبساطتهم لا يكدرها عليهم قوّال يصوغ الحكمة ولا يعنيها .

ما أكثر الذين يعيبون على الناس أوضاعهم ، ويسخرون من تصرفاتهم حتى إذا استوى لهم مقام ترفعوا ترفع المدل بنفسه ، واعتزوا اعتزاز الغنى عن غيره ، وظلوا فى تصعيدهم لا ينظرون إلى مستوى الناس دونهم إلا ليزروهم ، ولا يتفضلون عليهم بالكلمة أو الموعظة إلا ليهزئوهم ويحرجوهم بها . . . كذلك دأب أختى معى أول ما استوى مقامها فى قلبى وسما مكانها فى نظرى . .

قالت وقد بان الاستياء فى وجهها :

— أنا لا أكره فيك شيئا إلا هذا التلبيس على نفسك ومخادعتها ... يقول علماء التحليل النفسى : إن الإنسان البسيط قبل أن يتوقد ذكاؤه ، لا يعرف لأعماله الخاصة غرضاً خاصا ، فهو يتخبط فيها كيفما اتفق ، ويمضى فى جدها وراء أول سراب يلمع له ، ثم لا يلبث أن يندمج فيما مضى ، ويملأ مشاعره حتى يقتنع بفخامته وجلاله ، ويلبس على نفسه ما شاء

له التلبيس والإقناع .. هذا الإنسان البسيط لا يستطيع أن ينظر نظرة هادئة عميقة ، يحدد بها نتائج أغراضه ، ولا يملك من القوة والثبات ؛ ما يكبح به أهواءه إذا ضل بها الوهم . . . هذا الإنسان خليق بأن يعيش شقيًّا بأعصابه ؛ رهين الغلطة الأولى . .

قال وقد شرعت نبرات صوته تبين فى وضوح أكثر من ذى قبل :

— مرت بنا دُمًى كثيرة فى الحياة تعيش بنظرياتها أكثر مما تعيش بقلوبها ، وتخوض فى مسائل من العلم أكثر مما تنظر فى نفوسها ، ولطالما قلنا مرارا : يا أيتها الدُّمى الفارغة من كل مرهفات الحس . ليست الحياة جميعها نظريات جافة تحللونها ، وليس العالم كله كتلاً من خشب تسنده رافعاتكم وتحركه آلاتكم .

— وليسوا كذلك أطفالا يهدهدون أنفسهم ، وتلوح لهم قطع الحلوى ؛ فينهالون عليها فى أعصاب محلولة ، ولعاب سائل .

— سترين أننى أكبر من طفل عندما أزدرد لعابى

أصوم عما تبعته نفسى وأحتسب جهادى لكرامتى .

— وتحتسبه كذلك لأولادك وزوجك فإنهم سعداء وخصصت لهم ، وسأظل على الوفاء لأخوتك مارجع فى صدرى نفس . . . ومد يده يصافحها فى حساسية حادة ، وعصب موتور ، ودمعة حائرة عز عليها أن تطفر فجمدت فى مكانها فى المآقى فشدت على يده بعزم المتهالك وضغطت على كفه كأنها تطبعها بخاتم الوداع ثم سحبتها فى حنان وود ، وولته ظهرها مصعدة إلى حفافى الوهدة ثم انطلقت تغذ السير فى رأس منكسة وطرف كسير لا يرين عن مواضع قدميها .

٣٣

قضى الأمر واختفى من عينيه آخر إشعاع كان يشرق فى وجهه فظل فى مكانه جامداً ، ثم انطلق بغتة يعدو إلى الحافة حتى انتهى إلى مستواها . . غذ بصره فى أحشاء الوادى فلمحها تختفى بين أدواح عالية من العرعر ، ثم تنحدر فى جرف من أجراف السيل فندت منه صرخة عالية أمل أن تبلغها لكنها

كانت قد اختفت تماما ، وحال الوادى بسهوله ومرتفعاته
وأدواحه بينهما . . فارتمى فى مكانه واستسلم لجفونه وشجونه .

ومرت به سيارة من جمالة الفواكه حسبوه أول ما رأوه
مريضا فاستوقفوا عيرهم ودلفوا إليه يعنون بشأنه ، وانطلق
بعضهم إلى الغدير فملأ بعض صحافه ثم عاد إليه ينضح الماء على
وجهه وأعانه البعض الآخر على القيام فوقف يتحامل على نفسه
ولكنه لم يحر جوابا ولم يبدر منه حرف يدل على ما يشكو .

ولاح لهم أنه من غير هذا الحى ، وبدت لهم سيما الحضر
واضحة فى هيئته فعرضوا عليه أن يصحبهم إلى الطائف إذا
كان من أهلها فأومأ برأسه علامة القبول ، وأناخوا بعيراً من
جمالهم فامتطاه فى إعياء ارتهكت له مفاصله والتاح له فؤاده .

٤٣

قضى يومه وزلفا من الليل فى حال من التململ والقلق . . .
كان مبلبل الخاطر مضطرب الحواس يستنشق النسيم المعطر
بعبيق النبات المزهر على سيف الوادى و بين ثنايا المنخفضات

فلا يستروح له أريجا ، وتنفسح أمامه حواشى الوادى مطرزة بالخضرة اليانعة فيغلق فؤاده دونها ولا تتفتح نفسه لها .

وأناخت العير عند صخور قائمة على جانب من الطريق تنحل منها أرض فسيحة الرقعة فى جانب وتزدلف منها فى جانب آخر وهدة تصطفق فيها مياه عميقة من مخلفات السيول والأمطار فدلف سالم إلى حافتها ونضى عن ثيابه وألقى بنفسه بين أحضانها مدة كانت كافية لتلطف حرارته وانتعاش فؤاده ، وفجأة خطرت له خاطرة جديدة ترك على أثرها الماء وخف إلى ثيابه فلبسها وإلى رفاقه من القافلة فاعتذر لهم باستحالة مضيه معهم ثم عرج فى سبيل آخر مصعداً فى مسالك وعرة انتهى منها إلى منحدر يلوى بلية الجبل ويستقر باستقراره فى رقاع فسيحة تكتنفها غياض وبساتين .

استوى به السبيل الآن فى نفس الطريق التى جاء منها فى الأيام التى تعرف فيها إلى (فكرة) فهذه الرابية التى اختبأ فيها بين النعاج يوم المطر ، وهذا بستان العجوز التى احتفت به على أثر الصدمة التى نالته ، وهذا الفىء الذى يتراءى من بعد

تحت الأغصان المتشابكة ، كان مقعده يوم أرسلت العجوز فى طلب فكرة لتؤانسه وهى لا تعلم من علاقتها به شيئاً .

ومن هذا الطريق يستطيع إذا دار مع استدارة المسيل ، ومضى بمضيه بين ليات الجبال أن يستوي مرة أخرى فى البقعة التى صادفها فيه أول ما صادفها ، وينعم بذكريات جميلة مرت به ليلة أن لاذا بالكهف يختبئان فيه من هطول الأمطار ، واجتمعا فى صبيحتها بالراعى ثم ارتقيا كتف الرابية ليبيتا ليلة أخرى مفعمة بأشجان الحديث وأفانين الرأى .

وغذ فى سيره تطيف برأسه الذكريات كما تطيف الأحلام برأس النائم ، ويطغى على نفسه الشجون كما تطغى على الكئيب الهموم . . . وسارت به الجادة تلتوى بليات المسيل فى ليل نشرت ذوائبه ، وتفتحت آفاقه عن نجوم متناثرة تخبو وتتلألأ وترسل إشعاعاً خافتاً لا يكاد يبين الطريق من ثناياه إلا كما يبين من خلال ذبالة ضئيلة رقيقة الحاشية ، وأشرق قبيل الفجر على الأفق الفسيح تتخلله الأودية والمروج والبساتين ، وأطل عليه الجبل الذى باتا ليلتها على كتفه شامخ الذرا ثابت الأركان ،

وتراءى له مكان الكهف الذى أظلهما فى أول ليلة صادفها واتقيا به المطر وكانت قد تثاقلت خطاه واختلجت مما ناله من التعب وأحس أنه يترنح ترنح المخمور ، فمال إلى أول شرف صادفه واستلقى منطرحاً على الأرض فى أنفاس متقطعة وجسم منهوك .

٣٥

تعالى النهار وارتفعت الشمس فى مدارها من الأفق صاحية ، وافترشت أشعتها الحقول والمروج وانسابت بين أشجار السوسن متجهة إلى الشرف الذى ينطرح ، فوقه فانبعث من نومه متأثراً بوهجها ووقدتها واستأنف سيره بين مماشى الغياض حتى انتهى إلى الصخرة الناتئة فوق حافة الوادى حيث جلس وإياها مع الراعى يوم كانت تحدثهما عن عادات الخطبة والزواج وما يسلس له قيادنا من تقاليدها ، فوقف يقلب نظره فى كل وجه من الصخرة . . هنا جلست (فكرة) . . وهنا نقرت بأصابعها ودقت بيدها ، ومن هذا الطريق أخذت دربها

فى اللحظة التى تركته مع الراعى لتصعد فى الجبل — ومضى يصعد خلفها ووثبات الغزال تتراءى بين عينيه كأنها شىء حقيق ، يتواثب أمامه بين الحجارة والصخور فى مسالك الجبل . وانتهى إلى ما انتهيا إليه ليلة أن باتا على كتف الجبل ، فإذا الصخور صامتة ، والمكان موحش ، والريح السافية تهب شديدة طاغية ، ونظر فإذا النتوء البارز من أضلاع الجبل تتوسده عروق صفراء وتكسوه أوراق جافة وأطل من حافته على مروج الوادى وغياضه وغدرانه فإذا صورة خامدة لا تنبض فيها حياة ، باهتة لا يشع فيها جمال .

واستقلته رعدة فاضطربت حواسه ، ووجف قلبه ، وأحس بدمعة تطفر من مآقيه فتجلد ، وملك جأشه ومضى يذرع الأرض فى خطوات بطيئة ثقيلة يقف فيها عند كل حجر وفى كل فجوة وعلى رأس كل مسرب .

أيها الجماد : فيم هذا الصمت الكئيب ، والوحشة الخرساء أيعنيك من (فكرة) ما يعنينى ؟ ؟ إنها تذهب فى غير عودة وتتركنى فى غير أمل . . فإذا ما دعاها داع من الشوق أو هفا

بها ما يهفو بى من نزق للمرور بك فوطئ نفسك لخطراتها ، وأحن على مواضع أقدامها .

وأنت أيها الريح السافى إذا ما صادفتك ترود هذه المعالم فترفق فى هبوبك ، وخفف من غضبك ، ورتل على مسامعها فى أناة وخفوت ما تسمعه يختلج فى صدرى من لواعج الحب وما تراه يترقرق فى محاجرى من إمارات الألم ، وما تقرأه فى ملامحى من علامات الوفاء للحب الضائع والأمل الذاوى .

قال هذا ثم دلف عائداً إلى المنحدر ، وانكفأ يهبط بين الصخور حتى استوى باستواء الوادى ، ثم مضى بمضى الجادة على حوافى الغياض حتى انتهى إلى الصخرة التى صادفها عليها أول ما صادفها . . فوقف تلج به العواطف ، ثم ترنح كما يترنح المخمور لعبت برأسه الخمرة ، وخطا نحوها ثم تراجع ، ثم خطا وتراجع ، ثم دار حولها يتصفحها من كل وجه ولا يدانيها ، ثم مضى فى طريقه وقد سحت من جفنه دمعه ، وندت من صدره زفرة .

وانتهى بعدها إلى الكهف الذى اتقيا به المطرفى أول

ليلة تعارفا . . هنا شدت من ذراعه ، واجتذبته إلى ما هيأ لها من مكان فى الكهف . . وفى هذه الزاوية وطأت له من الحشائش الجافة فراشاً وثيراً ، ومن هذه الأحجار اتخذت موقدها تضرم النار فيه ، وتنضج له شواءاً طازجا لذيذاً .

وغمرته الذكريات فهاجت شجونه ، وطوحت أفكاره تخيل إليه أنها إلى جانبه تدنى إليه فنجان القهوة يطفو عليها الحباب ، وشعر بنكهتها اللذيذة فى فمه ، وسمع صوتها يناديه : « إنى بنت هذه الجبال العاتية درجت فى وعورها واكتسبت من صلابتها . . ستجدنى أبرز للند وأقابل الكفء أجزيه عن مروءته فضلا وعن خسته مراً ، ولست بالمرتابة فيك وقد شهدت نبلك ، ولا الخائفة من استدراجك ولو كنت الشيطان».

ورأى نفسه يجيب على ما يسمع : « إننى أخاف هذا العتو ،وترعدنى المبارزة ولا أجدنى اليوم بعد أن ذهلت وانحلت مشاعرى أقوى حتى على الكلمة الحادرة والنظرة العابرة »

وأدركه الوهن ، وأنثالت على رأسه الخواطر متشعبة متضادة ، واطرد به التفكير فذكر أهله وأولاده ، وذكر عبثه

بحقوقهم وتجنيه عليهم بهذا النزق الذى لا يصدر عن غير طائش أغواه هويٍ ضال ، وأعمته آمال ضائعه لا يرجو عندها نهاية .

وقال فى نفسه : لقد كان أخلق بى أن أحتقر هذا التشبب وأنفض يدى من أدرانه وأوصابه . وليكن ما يكون ! ! إنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، ولا يثنى عن الطيش إلا عزمة جبارة ووثبة قوية ثابتة .

ما علاقتى بامرأة ضالة بأفكارها ، عابثه بالمجتمع ؟ . أهو الجمال أم الجاذبية ، أم الفتنة ؟ — كل هذا هراء إذا قيس بما أتحملة من علل تدوينى ، وأدواء تضوينى ، ونزق يزرى بكرامتى كرجل ، ويعبث بمروءتى كرب أسرة ووالد أطفال .

لأضع حداً لكل هذا ابتداء من ساعتى .

وسأرى أى رجل أنا !!!

وقام من توه كمن نشط من عقال ، ونفض ثوبه فنفض معه ضعفه وآلامه ونزوات نفسه . ودار على عقبه فاستوى فى الطريق يمشى مشية رجل جديد لا علاقة له بأمس الدابر .

٢٦

قالت زوجته تحدث جارة لها :

— ما رأيت كنزوات النفس سرا يغلق على الفهم ويستعصى على التفكير .

مضت على سالم زوجى أيام تقطعت فيها أسبابه بنا ، وتعلقت بصور فيها كثير من الخيال الشعرى ، طوفت به فى مجاهل من الجبال والقفار والأودية الضالة ماشاء له التطويف . وفجأة انطفأت وقدة هذه النزوة وعاد إلينا كما كان ، وأفضل مما كان رجولة واستقامة وأخلاقا .

ما حاولت قط فى نزوته أن أشغل نفسى بالهواء الذى يدعونه نصحا لأثنيه عن شىء ملك حواسه ، وسيطر على مشاعره لأنى كنت أسمو به عن الألفاظ الثقيلة والمعانى الفجة التى ينمقها الناصحون فى العادة تنميقا لا يراعون فيه أسرار النفس وفك مغاليقها .

كنت عاجزة عن أن أتصل بنفسه، وأتعرف إلى خلجاته تعرف الآسى يتفحص المرض ويتفهم الدواء فرأيت أننى بإقحامى

نفسي فيه أوصل الداء ، واستثير ضــدى عواطفه ، وأمهد له بالعصيان والجموح .

لهذا تركته يمدر فيما سدر آملة أن أتفحص حقيقة النزوة فيه توطئه لمواساته عن فهم وتحقيق فإذا النزوة تنكفىء ولمـا أبلغ سرها ، وإذا الجذوة تنطفىء ولما تبلغ ذروتها .

ذلك لأن لأسرار النفس خلجات مغلقة تستعصى على الفهم والتبصر . ولأن رحمة الله أقرب إلى عباده المخلصين .

٣٧

ومضت شهور الصيف بسالم فى أجمل ما تمضى بالمصيفين فى الطائف بلدة الهواء والمـاء ، وانقشعت كآبة كاقت تغلق على صـــــدره ، وتضغط على فؤاده ، وتفتحت نفسه للحياة فاستحالت صورته الـكاسفة ، ومحياها الضامر إلى صورة ومحيا أخر تشيع فيه معانى السعادة والغبطة .

كان يقضى بكر أيامه فى نافذته المطلة على السهل المنبسط أمامه تترقرق فى حواشيه النسمات الرقيقة ، وكان يشرف فى

جلوسه على مروج وزروع تكتنف السهل فى بعض جنباته ، وتتخلله في جنبات أخرى وأصوات العصافير والنغارى تشقشق فى الجو الحالم ، وتصطفق أجنحتها حول شجرة من أشجار الكمثرى تترامى فروعها بالقرب من نافذته .

وكان إذا تعالى النهار ، وبدأ وهج الشمس يتخلل نافذته قام إلى مكتبه فى الغرفة المجاورة وفض رسائل بريده وتناول ملفه فأودع فيه مالزم إيداعه ثم بدأ يحرر أجوبته إلى وكيله فى مكة أو عملائه فى الملقحات بتصريف ما يلزم تصريفه من بضائعه ، وطلب ما يلزم طلبه من الأصناف التى يشتغل بتوريدها .

وكان يغدو عليه فى كل أمسية نفر من رفاقه فيخرج معهم للاستراضة فى العقيق ، يصعدون فى كثبانه الصغيرة ليشرفوا منها على أحشاء الوادى ، أو ينحدرون فى مدارجه ليتمتعوا برماله الناعمة فى أعماقه ، أو يرودون البساتين ليتخللوا أشجارها الفينانة ويجنون ثمار الخوخ والتين ثم يفترشون حوافى البرك ليطعموا ما جنوا ويخوضون بأرجلهم فى مياهها الصافية .

وفى بعض المرات كانوا يدعون البستانى ليحمل إليهم من ثمار

البستان ما يدفعون ثمنه بالسعر الزهيد ، أو يصحبون خادمهم على رأسه (سموار) الشاى وآنيته إلى حيث يجهزه لهم تحت عريش من أعراش العنب أوغصن فينان من أغصان السفرجل.

ويظلون فى استراضتهم هذه ونزعتهم إلى أن يودعوا شمس المغيب وراء الجبال الباسقة فى الأطراف البعيدة من الوادى.

٣٨

وبدت طلائع الشتاء فتعرت الأشجار مما كان يكسوها من الأوراق وبدأت تنفح الجو نسمات باردة ثقيلة فبدأت أرتال المصيفين تغادر الطائف إلى مكة أو جـدة أو غيرها من مدن الحجاز وشد سالم رحاله مع المسافرين واستوى فى بيته فى مكة وعادت سيرته فى متجره وأعماله الخاصة إلى ما كانت . . إلا وميضا خفيفاً من الذكريات كان يومض فى نفسه بين آونة وأخرى فيشعر من جرائه بضغط ثقيل على صدره وحرقة أليمة فى فؤاده لا يلبث بعدها أن يسرى عن نفسه بما يشغله ويغمر مخيلته بالشئون الهامة التى تحوطه ، ويعود سيرته من صفاء الخاطر وجمال الحياة .

وحل موسم الحج فضاقت مكة بوفودها من الأصقاع ، وازدحمت طرقاتها بهم . . وجاء يوم التروية فعج الطريق إلى عرفات بأبواق السيارات الضخمة تنقل الحجيج . . وازدحمت وديانه وحواشيه بالجمال المتقاطرة تحمل ركابها فى (الشقادف) أو على الرحل ، وانتظم سهل عرفات المترامى خياماً لا يوفيها حصر ؛ تتشابك حبالها ، وتندغم أطنافها أَو تنفرج بما يشبه العرصات ؛ فيتكتل الحجاج فى ظلالها متبتلين خاشعين متجهة نفوسهم إلى الله المنفرد بملكوته ، العظيم بقدرته ، العفو بفضله: ربنا ما خلقت هذا باطلا . . سبحانك ! !

آذنت الشمس بغروبها فبدأ الحجيج يقوض خيامه وبدأ المفيضون من عرفات تدلج قوافلهم وسياراتهم فى خيوط يفرغ بعضها فى بعض كأنها حلقات السلسلة تكاد لا تعرف لبداءتها أولا ولا لنهايتها آخراً .

وأفاض سالم فيمن أفاض تاركا خيمة رفاقه لهم يقوضونها ويعنون بترحيلها ، ومضى يمتع روحه بالإدلاج راجلا فى غمرة المفيضين . . وسحت السماء بمدرار هتون فجأرت الأصوات

وتجاوبت أصداؤها من الجبل إلى الجبل وهرولت قوافل الجمال تزاحم بعضها ، ومد الراجلون خطاهم يسبقون الهتون إلى منجى فى ظلال (الشقادف) أو أحمال الخيام ، وفاض الوادى بعراة الهجانة من مختلف القبائل العربية يحثون مطيهم خفافاً إلى بطن عرنة .

وأحس سالم بطرقة عصا تلامس رأسه فى رشاقة . . فالتفت ليرى لثاما يستدير فى نصف هلال على وجه يشرق بالجمال وتنطق عيناه بالسحر . . . إنها إشراقة (فكرة) ، وإنه محياها وقسماتها وعيناها المتألقتان .

ورآها تشد زمام ناقتها ، وسمعها تحييه فقفز فؤاده إلى صدره وارتاشت جوانحه وخانه النطق فلم يزد أن أشار إليها بإيماءة انثالت فيها آلامه وطغت عليها شجونه .

وأشارت إليه أن يشاركها الركوب فكان أسرع من كلماتها إلى عنق الناقة ، ثم إلى مستوى الرحل منها ، وكانت أخف منه إلى الرديف خلف الرحل ، وما استويا حتى أرخيا للناقة زمامها وتركاها تمد خطاها وتزدلف فى غمرة النوق بين الأعراب المزدلفين .

وبدأته الحديث بالسؤال عن حاله فكان يوجز القول استقراراً لجأشه حتى عاد إليه هدوءه ، واطمأن وجيبه ، شرع يسألها عن أحوالها ويجيب فى إسهاب عما توجهه إليه من حديث .

٣٩

وانتهيا إلى منازل البدو فى مزدلفة فجمعا بين المغربين وقاما إلى حصواتهما يلتقطانها ثم عمدت (فكرة) إلى مبرك الناقة فارتفقت ركبتها وأرسلت بصرها يسبح فى هذا الخضم المائج بمئات الألوف من الحجيج يزدحم بهم مسيل الوادى حول المشعر الحرام .

وأقبل عليها وفى كفه حفنة مما جمع من الحصا وقال : وهو يشير إلى حصوة منها جعلها بين سبابته وإبهامه :

— ألا ترين أن شعائر الإسلام ترمز فى كثير من نواحيها إلى معان غزيرة يغلق سرها على غير ذوى البصيرة من أصحاب العقول الراجحة .

— لا أرتاب فى هذا . . . وشد ما يحز فى نفسى أن يدعى

العلم بالدين قوم تبلدت أذهانهم بالحشو الذى قاله ويقوله أشياخهم دون أثارة من عقل تعينهم على التعمق فى مسائل الدين وفهم أسرارها . . . ولكنه كان بودى معرفة الجامع بين بحثنا وما نحن فيه .

— أريد أن أقول إن المعنى العميق فى تكريم الجندى المجهول عند أرقى الأمم يتجلى بأوضح معانيه فى تحقير الشيطان بالصورة التى رسمها الإسلام من ثلاثة عشر قرنا خلت .

الأمم الراقية تكرم الجندية بباقة من الورد تضعها على قبر الجندى المجهول رمزاً لاحترام فكرة الجندية — والإسلام يهتدى إلى هذا المعنى العزيز قبلهم فيرسم لمعتنقيه فكرة تحقير الشيطان فى بضع حصوات يرجم بها نصبا شاخصا كرمز للشيطان — وهو فى ذلك يشير إلى إهانة شأنه وإذلاله .

— لا جرم أنها حقيقة ترمز إلى فكرة سامية فى البحث ولا جرم أن الإنسان جميعه حقائق ترمز إلى مثل هذه المعانى ولكننا — ونحن نعنى بحشو أذهاننا بالمتون وتقليد أشياخنا فى كل مايصدرون — نعطل وظائف العقل ونلغى فيه طبيعة التعمق

والاستقراء ... هذا صعيد من مشاعر الله الحرام المحرمة يزدحم بمئات الألوف من أصقاع الأرض فى ظرف واحد أتظنينه كان تصميما لأعمال تقليدية ، وحركات آلية هى كل ما نفعله اليوم .

— أبداً . . ولم يكن إلى جانب هـذا تصميما قاصراً للأصوات تجأر بالدعاء والنحيب والاستغفار والطلب بل ليحتمل أكثر من هذه المعانى ويمضى إلى أبعد من هذه المنافع .

— لو كنا نفهم مثل هذا التصميم برموزه الحقيقيـة لاستوت فى كل صعيد من مشاعرنا الحرام ندوة عامة تتكاشف فيها شئوننا ، وتتناول آراءنا ، وتتعرف مواضع آلامنا فيعرف الهندى ما يشكوه الصينى ، ويفهم الصينى ما يعانيه التركى ، والعربى والصومالى . نبحث شئوننا مجتمعين ، ونعالجها متساندين ، ولـكن أفهامنا تغلق دون هذه الأسرار ، ونشاطنا يقصر عن الاستفادة منها .

— يا لجمال الحج وروعته لو وقف الشامى على جمله الأشقر فى بطن هذا الوادى يستعرض الحال فى بلاده ، وارتقى الهندى والمصرى مشارف أخرى متنائية متقاربة يصدعون بما فى

نفوسهم ، وينفثون ما فى صدورهم ، ووقف على نجوة منهم حكماء فى الإسلام وعلماء فى الفلسفة ، وأساتذة فى الصناعة ، وحملة شهادات عالية فى الاقتصاد والسياسة والحرب وعلوم الاجتماع يعرضون بضائعهم وينادون بآرائهم ويبحثون فى نظرياتهم . . . إذن لكان الحج أوفى بغاياتنا ، وأحفل وأقرب إلى المعانى السامية التى يرمز التشريع الإسلامى إليها فى جميع ما يشرع .

— لو كان هذا تشريعاً فى أوربا لعرفوا لأسراره معانيها وجعلوا أعمالهم فيه أعمالا حافلة بالجليل المفيد .

٤٠

ومشت طلائع الصباح فى صفحة الأفق خيوطا حمراء ، وانعكست أشعتها براقة متلألئة على قمم الجبال فى جنبات وادى مزدلفة ، وبدأ ضجيج المزدلفين يستأنف حركته بعد هدأة الليل الأخيرة ، وبدأت قوافل الحجاج تتقاطر مولية وجهها نحو منى ، وأرتال السيارات تتعاقب مدوية أبواقها فى الفضاء وبدأ

القوم من رفاق فكرة يعدون رحالهم استئنافا للازدلاف إلى منى.

عندئذ مالت فكرة على أذن سالم وأسرت إليه فى صوت يشبه الهمس الخافت قالت :

— لعلك تذكر أننى فيما حدثتك عن نشأتى أخبرتك أن فى إطلاق كلمة أبى على فقيه القرية العجوز الذى ربانى شيئاً من التجاوز وأن همسة من الشك تساور بعض النفوس فى قريتنا فيما له علاقة بمولدى ولعله فاتنى أن أخبرك أن عجوزاً فى القرية أسرت إلى صاحبة لى بأنها ترجح أن عائلتى من مكة ، وأننى وجدت متروكه فى قيعة من الأرض فى طريق القوافل المارة من مكة إلى الطائف، وأزيدك اليوم أننى التقيت صدفة بسيدة فى عرفة من عائلات مكة ، وأنها ذكرت لى أنها تعرف عائلة تفقدت ابنتها فى الثانية من سنها فى طريق القوافل إلى الطائف وقد ذكرت لى عنوانها فى مكة وطلبت إلى أن أوافيها فى منزلها فى مكة لتجمعنى بهم لعلنا نجد فى الظروف والأدلة التى تحيط بالحادث ما نتعرف منه الحقيقة أوفيه . . فما الذى تراه فى هذا ؟ وأية فكرة تشير بها على ؟ ؟

أنصت سالم لحديثها وعاطفة غريبة لا يفهم سرها تتجاوب بين حناياه . . . كان يشعر أن كلماتها تتفتح لها نفسه وأن ناحية مظلمة فيه تشرق لحديثها ورأى نفسه يضع كلتا يديه على رأسها ويطبع عليه قبلته ثم يربت على كتفها ويشجعها ويرجو لها أطيب التمنيات

واستوى أصحاب (فـكرة) على رحالهم وصاح صائحهم بها فأناخت ناقتها وهى تميل إليه هامسة فى أذنه :

— وسترانى بعد هذا مخطوبة إلى من تسرك مزاياه فكن واقعيا أكثر مما يجب ، وأبق على أخائى إبقاءك على الوفاء لزوجك وولدك !! .

ولم تهمله لتسمع إجابته بل كانت أسرع إلى مكانها من الرديف ثم أشارت إليه أن يمتطى الرحل فأبى عليها وشرع يبدى أعذاره عن استئناف السير معها بحجة أن له رفاقا لا بد من البحث عن مكانهم فى مزدلفة. ومدت يدها تودعه فوضع فيها يداً متخاذلة وأشفعها بكلمة فاترة لم تطاوعه حروفها على النطق ثم تركها تدلج فى عير قومها وتختلط بغمرة المزدلفين وزحامهم.

٤١

وجمد فى مكانه كما تجمد الصخرة فى معترض السيل لا يحس بنفسه ، ولا يشعر بالزحام الذى يصطفق ، والجماهير المتدفقة حوله تدفق السيول فى مدارج الوديان . . . لم يكن يعنيه زملاء ضائعون ، وليس عليه ما يلزمه البحث عنهم كما كان يدعى أمامها ، وإنما كان يعنيه ثورة مبهمة اضطرمت فى نفسه ووقدة من الحمى اشتعلت فى جسمه ، وخفقة من الاضطراب مشت فى جوانحه اهتز لها لها كيانه ، وتخبطت فيها حواسه .

— إنها تزف إليه بشرى خطوبتها ممن تسره مزاياه ، وإنها بعد هذا تريده ليكون واقعيا أكثر مما يجب وأن يبقى على إخائها إبقاءه على الوفاء لزوجه وولده . إنها خطوة جبار لا تعنيه شجون النفس ورقة الحساسية ، ونبل العاطفه بقدر ما يعنيه الواقع .

أى واقع هذا يتجنى على سعادة الغير ويصادر هناءتهم ويضغط على مواطن الإحساس من قلوبهم ويدوس بأقدامه

العريضة على أفئدتهم ثم يتركها وليس فيها نأمة تنبض بالحياة ، إنه واقع جلف جبار تلعنه السماء ، وتلعنه الأرض ، ويلعنه من فيهن .

واستولى عليه الوهن ، وعاودته نكسة القلب ، وشعر بضغط شديد فى صدره ؛ فتخاذلت رجلاه ، وسقط فى مكانه من الأرض هامد الجسم فاقد الحركة !

ولم يثب إلى نفسه إلا بعد لأى فعجب لهذه النزوة من نزوات الشيطان كيف تستأنف سيرتها معه بعد أن نفض يده من كل ماله علاقة بضعف القلب ووهنه ، وبعد أن آلى أن يحتقر العبث ويعيش قويا بنفسه سعيداً بزوجه وولده .

ومضى فى طريق المزدلفين وهو يقول فى نفسه : (ليس فى مثل هذه النكسات إلا النزق الذى لا يليق برجل يحترم كرامته . . . وليس فى (فكرة) ما يعدو الإخاء الصادق والود البرئ ولا فى تصرفاتها ما تؤاخذ عليه كفتاة نبيله تنظر بعين الواقع إلى علاقتى بها كزوج لأم أطفال) .

الخاتمة

فى شارع يلتوى بالتواء أحد الشعاب فى مكة قامت دار آل عامر سامقة الذرى عريضة الأكناف تنعقد بين يديها دكتان واسعتان كانتا فيما سلف من مجدها مجلس الخدم من أتباع البيت ومواليه . ويمضى بك فى مدخل الدار دهليز رحب الجنبات يسلمك إلى سلم عريض يشعرك بوجاهة البيت وعظمة من سلف من أصحابه وبُناته .

دلفت (فكرة) إلى صدر الدهليز ثم رقت درجاته تتقدمها سيدة نصف تتئد خطاها وتتسع ، ثم تنتقل فى طبقات البيت تنقل عارف قديم العهد به .

وضربت بكفيها على عادة الحجازيين استئذانا بالدخول فأجابها صوت يرحب بقدمها ، فتقدمت تتبعها (فكرة) إلى بهو فاخر تستقبلها عند بابه عجوز فى قامة دقيقة منصوبة ، وسحنة رقيقة سمحة .

وبعد أن حيتهما بقدمهما ودارت أكواب الشاى فى صحاف

من البلور ابتدرت السيدة الحديث فقالت :

— كنت سمعتك تتحدثين عن ابنة لأخيك فقدتها فى طريق الطائف ولم يتصل بك خبرها فهل كانت لها ملامح خاصة تعرفينها بها فيما لو رأيتها ؟ ؟

— إنها فقدت فى أوائل عامها الثانى وليس لطفله فى تلك السن ملامح يمكن التعرف بها على شخصها ، وبفرض ذلك فمن المستحيل أن تبقى محتفظة بملامحها فيما لو وجدت فإن مرور ثنتين وعشرين سنة كفيل بكل تغيير فى ملامحها وشكلها وتكوين جسمها .

— وإذا تركت هذا جانباً أليس فى استطاعتى أن أعرف الحقيقة من الملابسات التى تفقد فيها ابنة من أحضان أبويها المسافرين.

— إن الملابسات فى ذلك الظرف كانت كأنما قد أعدت إعداداً فقد كنت وأبواها مسافرين إلى الطائف في قافلة طويلة من أقاربنا وجيراننا وبنى عمومتنا وكنا نزولا ليلتها فى (السيل) من محطات الطائف، وغدونا مصبحين إلى رحالنا وليس للبنت من فرط دلالها قاعدة فيما يختص بركوبها ، فهى أحياناً فى حجر

أمها، وأحيانا فى حجر أبيها ، ومرات قليلة موزعة بين شقادف نفر عزيز علينا من أقاربنا ، وكان نظام القافلة يجعل شقدف الأم فى الطليعة ثم تتقاطر العير الخاصة بالأحمال بعده ثم يأتى على أثره شقدفان لجماعة من بنى عمنا من غير الأقارب الذين ذكرت ، ثم يأتى على أثره الشقدف الخاص بى وأخى ويتقاطر بعده غيره من جمال الأحمال أو الشقادف فيقضى الوضع أن يفصل بين شقدفنا وشقدف الأم بعض جمال للأحمال والشقادف ويفصلنا عن أقاربنا بعض جمال لأبناء العم . . . وعندما استوينا راكبين فى غدوتنا من السيل لم يدر بخلدنا أن نسأل عن البنت فأمها أحفل بها من أن تتركها ، ولم يدر كذلك فى خلد الأم أن البنت بعيدة عن حجر أبيها أو العزيزين من أقربائها .

وهكذا أدلجت بنا القافلة وظلت تدلج إلى أن أمسينا فى الطائف فسألت أمها ، وبحث أبوها ، ودهش أقرباؤها ، وكانت النتيجة أن البنت كانت مفقودة ، واستأنف أخى عودته فى نفر من مواليه إلى السيل فلم يعثر على أثر لها وعبثا ضاعت جهودنا فى البحث والتقصى . وقال أعراب من المارة فى السيل

إنهم رأوا نساء من بادية الطائف كانت إحداهن تقل على كتفها بنتا لها الأوصاف التى ذكرناها ، إنهن كن يردن بها أعشاش المسافرين قبيل الظهر وبعده ، باحثات عن أهلها ثم لا يدرون بعد ذلك عنهن شيئا .

وقال بقالٌ من سكان محطة السيل : إنه رأى النسوة إياهن وكانت واحدة ترضعها من ثديها والأخريات على كثب منها يسألن ، وإنه يغلب على ظنه أن النسوة كن من أهالى القرى المجاورة للطائف من ناحية الشرق أو الشمال الشرقى وعبثا جهدنا فى البحث بين القرى التى أشار إليها فلم نعثر على أثرها..ولا أستبعد أن المرأة التى كانت ترضعها كانت ترغب فى تبنيها أكثر من رغبتها فى البحث عن أهلها وإلا لما عدمت وسيلة من طريق الشرطة فى الطائف للوصول لأهلها ، فلم يكن بحثها إلا قناعاً خادعاً أرادت أن ترضى به عقلها الظاهر ؛ أما ضميرها فقد كان منطوياً على استخلاصها لنفسها وتبنيها .

وندت عن (فكرة) آهة طويلة ورأت نفسها تقول :

(رحمة الله عليها) .

والتفتتا إليها فى دهشة وابتدرتها العجوز صائحة : — «أتعرفينها . . ؟»

فلم تزد (فكرة) على أن ضحكت ثم رجت إلى العجوز أن تمضى فى حديثها .

— ليس لدى ما أمضى فيه فقد كانت جميع محاولاتنا إلى عبث فاحتسبنا الله . . . وليس فى اعتقادى أنها ميتة وإن كان الكثير يعد رفاتها سحيقا جرزاً ، يستوى فى هذا أبوها وعموم قرابتنا أما أخوها (سالم) فقد خلفناه يومها فى مكة ولما وافانا بالطائف تركناه يفهم أنها متوفاة ولم نسمح لحرف واحد من قصتها أن يتسرب إليه .

وشعرت (فكرة) بقلبها يختلج ، ومفاصلها ترتهك ، وأحست برعدة تشيع فى جسمها ، وتطغى على صدرها فتضغط على أنفاسها فتطرحت على نفسها وأسبلت عينيها .

وظلت على حالها ذلك مدة لم تطل ثم تحاملت على نفسها وملكت جأشها وعادت تصلح من جلستها وتضغط على مخارج الحروف بين شفتيها وتقول :

وإذا تراءت لكم فتاة صادفها ما يشبه هذه الملابسات أفلا يمكن أن تجد فى نفسها من العلامات الفارقة ما يطمئنكم ويقنعها .

— لدى شخصيا علامة لا تقبل الشك فقد كان فى أحد ساقيها مما يلى الركبة شامة مستديرة فى حجم غير طبيعى يميل فى لونه إلى الحمرة ، وأعتقد أن مثل هذه العلامة لا يتناولها الزمن وإذا تغير شىء من لونها فإن موقعها لا يناله التغيير كذلك حجمها سيبقى فارقا بينها وبين كل شامة طبيعية .

ورأت (فكرة) نفسها تكشف عن ساقها وتشير بيدها إلى الجزء الذى يلى ركبتها وهى تقول : « ألا يمكن أن تكون الشامة قريبة من هذه ! ! » .

وكانت شامة قد استدارت فى حجم أكبر من الحجم الطبيعى ، وضرب لونها بين الحمرة والصفرة .. نظرت إليها السيدة العجوز نظرة كانت فارقا بينها وبين السمت الهادىء والجلسة الوقور فقد ندت منها صرخة عالية ثم ألقت بنفسها عليها وهى تصيح : « وابنتاه . . . إنها ابنة أخى الغالية » .

ودخل سالم على صوت الضجة فإذا (فكرة) صديقته بين مسارح الوديان ومصاعد الجبال ومسارب الكهوف تنطوى بين أحضان عمته وسيل من القبلات ينثال على جبينها ووجنتيها .

وصاحت العمة : « إنها أختك يا سالم . . . أختك آسيا من أبيك وأمك . . . إنها أختك ولا عبرة بكل ماقلناه لك عن وفاتها » .

فما ملك سالم أن اندفع إليها وانهال على رأسها وجبينها لثما وتقبيلا . . ورأى نفسه يجمع أصابعه فى أسفل ذقنها ويرفع وجهها فى أناة رقيقة حتى يصافح عينيه المترقرقة بدمعة حادرة ثم يقول لها :

— هنا أخوك . . هنا أخوك يا آسيا . . وليتنى أعرف الماكر الذى أطلق عليك « فكرة » لأحاسبه على إمعانه فى التضليل والختل .

قالت وهى تحيطه بذراعها : « إن الأمر أهون من أن يحتمل المكر ؛ فقد كنت طفلة لا أعى اسمى وكان لابد من أن

يسمونى « رباباً » وعند ما نشأت وا كتمل فهمى كنت دائمة التعليق على كل حديث أسمعه ، وكنت أبدأ معارضتى دائما بجملة «عندى فكرة» ولزمتنى هذه الجملة حتى أصبحت علماً على ومن ثم ظلوا ينادوننى « فكرة » حتى غلبت على ، وأصبحت اسمى .

وتحدرت دمعته وهو يضع خده على رأسها ورأى نفسه مرة أخرى ينهال لثما على جبينها ويقول :

— هنا أخوك يافكرة . . أخوك الذى انتظرته طويلا ، وترقبته كثيراً ، وحامت به فى ليالى الشتاء المقرورة يقرأ لك من شعر أمية بن الصلت وتقرئين له لزوميات المعرى ! !